رمضان مصطفى سليمان

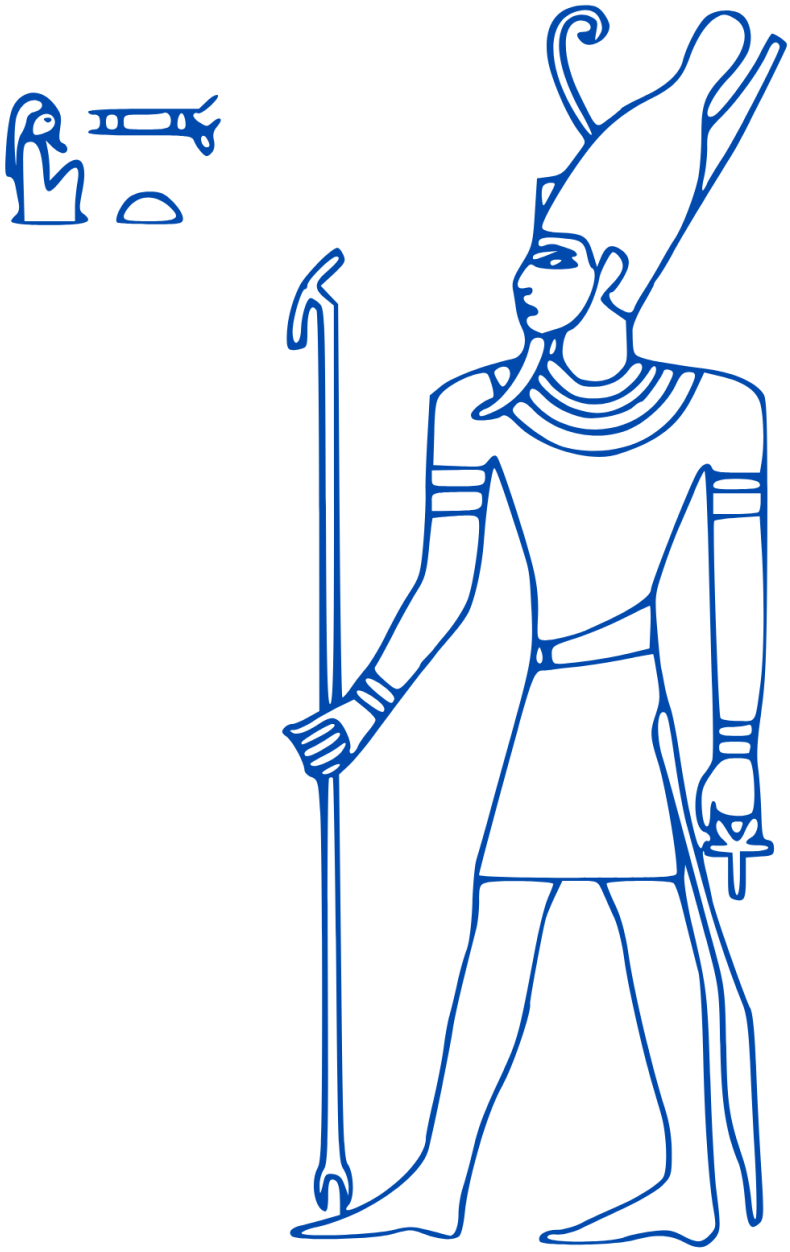

عيني عليك يا مصر

إهـــــــداء

إلى كل من يحب مصر حبا صافيا نقيا .

إلى كل أصدقائي المخلصين في حب مصر .

إلى روح أبي و أمي .

تـمهـيـد

الحمد لله رب العالمين ، حمد الصابرين الشاكرين ، و الصلاة و السلام عل نبينا محمد الأمي الأمين ..

قال الله عز من قائل عن مصر : " و قال أدخلوا مصر إن شاء الله آمنين " فمصر – و لله الحمد من قبل و من بعد – آمنة يسودها الاستقرار إلى أبد الآبدين .

و مصر أيضا في التاريخ خالدة .. فالحضارة الفرعونية نقشت أسمها في سجل التاريخ ، رغم أنه إلى الآن لم يكتشف كل مظاهر هذه الحضارة العظيمة ، وما أكتشف إلى الآن إلا قليل من كثير .. و مازالت جهود العلماء المصريين و الأجانب حثيثة لكشف عظمة هذه الحضارة العظيمة .

هذا التاريخ القديم و الحديث نستمد منه حضارتنا المتفرعة و المتنوعة في شتى دروب الحياة .. نأخذ منه الإلهام .. فيبدع المبدعون أدبا عظيما يضاف إلى سجل نهضتنا .. وفنا خالد يدوم إلى ما شاء الله عز وجل .

ويحفل التاريخ المصري قديمه و حديثه بالشخصيات التي أحبت مصر حبا جما فضحت من أجله بالنفس والنفيس ، والشخصيات التي طمعت في مصر ، أرادت أن تأخذ ما ليس بحق لها ، فردت على أعقابها خاسئة .. و قد اخترت في هذا الجزء بعض الشخصيات ، و أبرزت من خلال سير حياتهم .. مكانة مصر في نفوسهم حبا أو طمعا .

فهل قرأت حقا تاريخ مصر بإمعان .. أظن إنك لم تقرأ هذا التاريخ إلا في الكتب المدرسية السمجة المملة، و أظن أيضا أن قراءتك لها لم تكن إلا بهدف دخول الامتحان و النجاح .

و لكني سأقتطف لك من تاريخ مصر بعض اللمحات التي ترضي نفوسنا فتدخل البهجة علينا ، أو التي تثير نفورنا .. و تبعث الخيبة ، و لكنها في نفس الوقت نتطلع على محوها من أرضنا الطيبة .

سأنتقل معك من شخصية تحدثت عن مصر ، أو زارت مصر في فترة من تاريخنا ، مدحا كان أو ذما ، ومرت كلماتها العابرة مرور الكرام على عباد الله من الأنام ، سواء أكانت تلك الشخصية من الأجانب عربا كانوا أو ينتسبون إلى الإسلام أو لا علاقة لهم بالجنس العربي أو الإسلامي ، أو من المصريين أصحاب المواهب ، سأقف معك أحيانا ساردا سيرة حياته، إن كان لسيرته الذاتية أهمية في الحدث ، أو مقتطفا من كلماته إن كانت لكلماته الأهمية في الحدث ..

و بعد ذلك سأنتقل معك إلى بعض الأشياء اليومية المذمومة التي تشوه صورة مصر في الداخل و الخارج ..

و سأمر معك على حدث قد نراه يوميا ، ومن كثرة رؤيته أصبح أمرا عاديا ، و يمر الناس أمامه و كأنه غير موجود .. و إن شئت الدقة كأنه شيئا أساسيا في حياتنا .

و قد أنقل لك قضية من القضايا الملحة في مجتمعنا و التي تثقل كاهل هذا البلد ، و نغفل عنها و لا نرى لحلها أمل في القريب أو البعيد .

و لقد مزجت هذا بذاك ، و فضلت أن يكون أسلوبي متنوع بين السخرية و الجدية ، و أعذرني إن لم أفرق بين كل منهما ، و لا أفصل بينهما ، فالهدف الأسمى أن نرى مصرنا في أحسن صورة .

و أحب أن أشكر كل من ساهم في إخراج هذا الكتاب بهذه الصورة ، سواء بالنصح أو الإرشاد ، أو المراجعة اللغوية .

و أتمنى من الله العلي القدير التوفيق لنا جميعا في حفظ مصر أمنا الغالية ، و صونها من أنفسنا أولا ، و من شر الخلق ثانيا .

خورشيد باشا

حمل الفرنسيون عصا حملتهم ورحلوا عن مصر نتيجة المقاومة الشديدة التي حدثت بسببهم ، و نتيجة لأن الشعب المصري لا يحب تدخل الأجانب في شئون حياته .

وما كادت الحملة الفرنسية ترحل عن مصر نتيجة لجهود أبنائها المخلصين من علماء الأزهر و كبار التجار و الأعيان و عامة الشعب .. حتى حلت بمصر الكارثة . و أي كارثة .

أرسل الباب العالي (سلطان الأستانة) واليا جديدا إلى مصر وهو خورشيد باشا ليكون الحاكم من قبلها على مصر . و ليكون استمرارا لحكم الدولة العثمانية المقيت .

و قبل أن نقف وقفة جادة أمام هذا الوالي ، ينبغي أن نعرف الشروط التي وضعها الصدر الأعظم لمن يتولى حكم أي ولاية في الدولة العثمانية ؛ و لعل من أهم هذه الشروط أن يدفع هذا الوالي للصدر الأعظم - نفسه - منحة مالية (رشوة) لتولي هذه الولاية ، و هي منحة تناسب حجم الولاية التي سيقوم بإدارة شئونها ، و أظن أن ولاية بحجم مصر الكبير تكون المنحة (الرشوة) كبيرة .. و الشرط الثاني أن يدفع ضريبة تناسب حجم هذه الولاية ، و هي أيضا كبيرة .. و الشرط الثالث أن يدفع رواتب الجند الأجانب و غيرهم ممن يكونون تحت أمرته .. و الشرط الرابع ألا تزيد مدة ولايته عن سنتين .. و الخامس .. و السادس .. الخ .

و حل الوالي أرض مصر فرحا فقد فاز الفوز العظيم ، وباشر مهام وظيفته الجديدة في حكم هذا الإقليم الغني بماله و رجاله ، بعد أن دفع للصدر الأعظم ما يريد ، و أول شيء كان في ذهنه أن يسترد ما دفعه من ناحية ، و أن يلتزم بالشروط التي تعهد بها أمام الصدر الأعظم .

و خورشيد باشا هذا كان رجلا قد لصقت ببطنه كرشا .. حتى لا تكاد تعرف أيهما هو ، كان يحب الأكل حبا شديدا ، و خلال الأكل يستطيع أن يفكر . و أن يبدع في تفكيره .. فيملأ خزنته بالمال ، ولا يهم على حساب من جمعه هذا المال .

تنوعت الضرائب التي فرضها على الشعب المصري ، و ابتكر من الضرائب أنواعا مختلفة استطاع بها أن يسلب كل ما يملك الكبار قبل الصغار سلبا ، و مازال الرجل لم يشبع ، فأصدر آخر تفنين ضرائبه العبقرية ، و هي ضريبة العمامة . و أظن أنه لو استمر في الولاية ، و لم يطرده الشعب المصري (و تلك كانت من نتائج الحملة الفرنسية التي نبهت الشعب إلى اليقظة من غفلته) .. لأصدر من الضرائب ما يعد ابتكارا .. كضريبة المبيعات أو المشتريات .. أو ضريبة الانتقال من مكان إلى مكان .. أو ضريبة السكن أو . و ياما في الجراب يا حاوي .

ضرائب شتى ترهق التجار إرهاقا شديدا، كالعادة ، فما بالك بالرعاع (عامة الشعب كما كانوا يطلقون عليهم في ذلك الحين) والتاجر يضيف ما أخذ منه على بضاعته ، و في النهاية يتحمل (الغلابة) هذه الضرائب .

طفح الكيل بالتجار و الأعيان و الرعية ، وزاد الحمل على من لا يقدر على تحمل هذا العبء .. و لا بد من حل ، يريح الجميع .

وكان الحل بعد ثلاث سنوات من حكمه ، و كانت الثورة على خورشيد باشا ، و محاصرته في القلعة .. ورغم أن القوتين لم تكن متكافئتين إلا أن الحماس الشعبي فد انتصر ، و الانتصار

دائما يحتاج بعده إلى تنظيم جيد حتى تسير المركب دون أن تتقاذفها الأمواج .

انضم الأعراب إلى الحركة الثورية رغم محاولة خورشيد باشا استمالتهم إلى جانبه بالمال ، و لكنهم انضموا إلى الثوار لأنهم جزء من الشعب ، و من المعروف أن المصريين لا تجمعهم إلا الأزمات .

و من ناحية أخرى قدم محمد علي نائب القائد .. أرسلته الآستانة لمواجهة الخطر الإنجليز الذي يواجه مصر ، و لكن قائد الحملة عاد إلى بلدته ، ليصبح محمد علي هو القائد الذي قدم لحماية مصر من خطر الإنجليز ، قدم المساعدة المبطنة للثوار ، لأنه كان لا يستطيع أن يظهر في الصورة ، و لأنه لا يريد أن يدفع للصدر الأعظم ، و أظن أن الصدر الأعظم لم ينس له ذلك ، و خيرا له أن يأتي تعينه من قبل الشعب .. هذه هي الديمقراطية .

استخدم محمد علي ذكائه الذي عهد به ، فلم يقف مع الثوار علانية ، بل في الخفاء ، و أخذ ينفخ في الرماد حتى تأتي النيران فتبيد هذا الحاكم الظالم لنفسه ،الظالم لشعب يحكمه ، حتى انتصر الثوار ، وكانت المكافأة أن عينه الثوار واليا عليهم ، و كأن أبناء مصر ليس فيهم من يقدر على أن يحكم مصر ، ولعل هذا من أكبر العيوب التي واجهت الثورات المصرية ضد المعتدين على طول التاريخ .

وظل محمد علي و أبنائه و أحفاده يحكمون مصر من 1805 حتى ثورة 1952، و تغيرت ألقابهم ؛ من باشا ، إلى خديوي ، إلى سلطان ، إلى ملك .. إلى المنفى .. و كله ماشي يا دميا خلاص ما بقاشي .

كان الخطر الذي يواجه محمد علي هو المماليك الذين كانوا يحكمون مصر بالفعل ، و بعد كر وفر استطاع محمد علي أن يهزم المماليك ، و أن يتخلص منهم نهائيا في مذبحة القلعة

الشهيرة ، و بذلك أنهى حكم دولة المماليك (أجانب أيضا) ، و أن ينتصر على الحملة الإنجليزية (حملة فريزر) و اتجه إلى تصفية الزعامة الشعبية بقيادة مشايخ الأزهر، هذه الزعامة التي جاءت به إلى الحكم .

و بهزيمة المماليك تتخلص مصر من استعمار جثم على صدرها عدة قرون عجاف . لتقع تحت احتلال جديد يستمر مائة و سبع و أربعين سنة .. و يشاركه المحتل الإنجليزي في هذا الحكم منذ سنة 1882 .

في بداية حكم محمد علي حاول الإصلاح و بناء دولة عصرية على الطراز الأوربي، وكان أمامه اتجاهين أولهما إنشاء جيش قوي ، وثانيهما الاهتمام بالتعليم ، وقد نجح ناجحا ملحوظا في التعليم ؛ فأرسل البعثات ، وفتح المدارس، و بعض المشروعات الاقتصادية الهامة كالقناطر الخيرية .. ، و لكن كانت السياسة العالمية ضد محمد علي .. فالدولة العثمانية قد أرادت أن تشغله ، فأقحمته في حروب شتى .

كما كانت أطماعه الشخصية سببا في فقده كل ما اكتسبه من أراضي ، فقد امتدت أطماعه إلى الدولة العثمانية ذاتها .

هذه مصر تنقل من كبوة إلى كبوة ، و تكاد تحاول أن ترفع رأسها ، حتى يأتي من يخفض هذه الرأس .

في بداية القرن التاسع عشر و من أقصى الشرق ، بدأ المارد الياباني ينفض غبار العصور الوسطى عن كاهله ، و بدأ يتجه إلى الحضارة الأوربية لتكون نموذج يحتذي به في صناعة هذه النهضة ، و كما فعل محمد علي باشا كانت القبلة التي اتجه إليها اليابانيون هي فرنسا ، بلد الحضارة و التقدم ، عاصمة النور و الأمل .

و تحقق لليابان نهضتها بفضل استغلال طاقات و جهود أبنائها المحبين لوطنهم .. المحبين للعمل (و هنا يكمن الفرق بين

النهضة المصرية و اليابانية) ، استغلال الموارد الاقتصادية استغلالا صحيحا ، استغلال الطاقات بكل أشكالها .

ورغم ما تعرضت له اليابان من هزات خلال الحرب العالمية الثانية ، إلا أن المارد الياباني ، قد استطاع أن يتجاوزها ، وأن يصبح ندا للدول الكبرى في كل شيء .

و السؤال المهم الواضح للعيان .. أين وصلت اليابان اليوم ، و أين وصلت مصر ؟ رغم أن بداية النهضة واحدة .

الإنسان الياباني يعمل من أجل العمل ، و يحترم هذا العمل ، و الحكومة اليابانية تقدر من يعمل بجد ، و الأجر يناسب مستوى المعيشة ، و الياباني العادي إذا لم يعش بكرامة فأفضل شيء لديه هو الانتحار ، و لا داعي أن نقول شيئا عن الإنسان المصري .. ذلك النموذج الغريب في العالم أجمع ، في بلده لا يعمل ، رغم أنه يعمل و إن عمل فإنه يتبرم و يشكو من مرؤوسيه ، ومن مستوى المعيشة المتدني ..

وحينما يسافر إلى خارج بلده يعمل ، و يعمل بجد و إخلاص .. يعمل في أي مهنة .. المهم أن يعود ، و قد أمتلك الآلاف من الجنيهات .. وقد أمتلك بيتا جديدا .. أو ملكه ..وقد أمتلك سيارة جديدة ..

و قد يرضى في غربته بالذل و المهانة .. قد يدفع الآلاف لكفيل يهضمه حقه .. المهم أن يسافر لأنه لا يجد في بلده العمل المناسب و الأجر المناسب .. و قد يدفع أيضا الآلاف لنصاب يرميه في عرض البحر .. أوفي دولة بدون تأشيرة .. ليبدأ رحلة الكفاح .. أو يتزوج من البلد الذي يذهب إليه ليضمن الإقامة المشروعة ثم الغنى بعد ذلك .

قرا قوش

لابد أنك سمعت عن هذا القائد - أو كما ندعي في حياتنا الشعبية - الحاكم قراقوش ، و الذي يقولون أنه حكم مصر .. و أكيد كانت الصورة التي رسمت لنا ، و ثبتت في مخيلتنا عن ظلمه و جهله و استبداده في مقدرات العباد .

و قبل أن أقف معك على سيرة هذا القائد أو الحاكم .. الذي يظن أغلب الناس أنه حكم مصر .. و تداولته الألسنة بأنه ظالم مستبد ، يصدر من الأحكام الغريبة التي لا تطاق ، و قد لا تنفذ ، وخلده مؤرخه ابن مماتي بأنه أحمق غبي .. هكذا ..

أما المؤرخ فهو ابن مماتي ، و أما الكتاب فهو " الفاشوش في حكم قراقوش " .. و من العجب أن يكون الاثنان وزراء لأكبر حاكم عربي عدلا .. و انتصارا للإسلام و المسلمين ضد الحملات الصليبية ، الملك المعظم صلاح الدين الأيوبي .

فمن هو قراقوش هذا ؟ .

أبو سعيد قراقوش بن عبد الله الأسدي الملقب بهاء الدين .. و كلمة قراقوش هذه تعني النسر الأسود في اللغة التركية (رغم أنه خصي رومي) .. و نحن لا نعرف له أب ، و لهذا أطلق اسم عبد الله على أبيه ..حتى يحتسب على الإسلام .. أما لقب الأسدي فيعود إلى عم صلاح الدين الأيوبي أسد الدين شيركوه (الذي كان يحكم الشام) .. و كان خادما عنده .. فأعتقه ، وجعل له زمام القصر (كبير الخدم) .. و استخدمه صلاح الدين بعد ذلك في نفس الوظيفة .. و لأسباب كثيرة .. أنابه صلاح الدين الأيوبي عنه في الديار المصرية ، وفوّض أمورها إليه ، واعتمد في تدبير

أحوالها عليه ، ولابد أن يكون الرجل بهذا الشكل ثقة في نظر الملك صلاح الدين الأيوبي الذي نعرفه جيدا بالنزاهة و العدل .

و للرجل آثار كثيرة في مصر ، لا تخطئها العين ؛ هو الذي بنى السور المحيط بالقاهرة ، وبنى قلعة الجبل، وبنى القناطر التي بالجيزة على طريق الأهرام، وعلى باب الفتوح بظاهر القاهرة خان سبيل، وله وقف كثير من المال حتى يقوم على خدمة المسافرين ، أيام إن كان فعل الخير للناس من صفات أهل الحكم . أضف إلى ذلك أنه عمر بالمقدس رباطا .

و حينما أخذ صلاح الدين عكا من يد الفرنجة سلمه أمرها ، حاكما لها من قبله .. و حينما أسر قراقوش في عكا بعد استرداد الصليبين لها ، افتداه صلاح الدين الأيوبي بعشرة آلاف دينار .

و السؤال الذي يتبادر إلى الذهن - بما إننا نعرف صلاح الدين الأيوبي العادل – هل يستخدم شخصا ظالما يمسكه أكبر الشئون في مصر أثناء غيابه ، أما يقتطعه ولاية مثل عكا ، أو يفتديه بماله ؟

و أظن أن العقل السليم ، و المنطق الحكيم يقول أن هذا منافي كل المنافاة في أن يكون هذا الرجل بهذه الصورة التي رسمت له ، فمن الذي رسم له هذه الصور التي بينته بالغباء و الظلم .

أما مؤرخ سيرته فهو ابن مماتى في كتابه المضحك " الفاشوش في حكم قراقوس "

و السؤال أيضا من هو ابن مماتى ؟

هو الوزير أبو المكارم الأسعد بن مهذب ابن مماتي .. وزير مالية لصلاح الدين الأيوبي .. و سيرة حياته تقول الكثير ، و الكثير .. يقولون أن أباه كان نصرانيا ، ثم أسلم هو وجماعته أيام الحكم الفاطمي لمصر .

يرجع أصله إلى أسرة (ممّاتي) النصرانية التي تبوأت منزلة رفيعة في عهد الدولة الفاطمية، وهي أسرة كانت تعيش في أسيوط ثم انتقلت إلى القاهرة للعمل في دواوين الدولة، إذ انفتح الفاطميون كثيراً على أهل الذمة وعينوهم في مناصب رفيعة، وقد تبوأ جد الأسعد (أبو المليح مينا) منصب مستوفي الدواوين ونال حظوة عند الفاطميين، أما أبوه (المهذب) فقد تولى رئاسة ديوان الجيش وأسلم أثناء ذلك.

كان الأسعد موسوعة في الأدب والفقه واللغة، له أكثر من عشرين مؤلفاً ، من أشهرها: (حجة الحق على الخلق في التحذير من سوء عاقبة الظلم) ، و (نظم السيرة الصلاحية) في سيرة صلاح الدين الأيوبي ..

أما أهم مؤلفاته وأشهرها على الإطلاق فهو كتاب (قوانين الدواوين) الذي يُعتبر موسوعة شاملة لحالة البلاد المصرية في القرن السادس الهجري، حيث تناول باستفاضة جغرافيتها وشيئاً من تاريخها، وتفصيل نواحيها وقراها وتأصيل أسمائها، وأنظمة الحكم والدواوين والوظائف، وشئون الزراعة وغيرها.

و كل كتبه تدل على موهبة فذة سواء في التأليف ، أو في سرد المعلومات الكثيرة التي بثها في كتبه ، و كان عقلية سليمة في الأدب و الفقه واللغة و التأريخ و أيضا في الجغرافيا .

و أما كتابه (الفاشوش في حكم قراقوش) فهو صور هزيلة لبهاء الدين قراقوش .. أرد منها أن يظهر غباء تلك الشخصية بالإضافة إلى ظلمه و عدم إنصافه ، و الأسباب كثيرة .. نعرض بعضها حتى نعرف ابن مماتي على حقيقته ..

فبهاء الدين قراقوش خصي رومي ، أي أجنبي عن مصر ، و بهاء الدين قراقوش عبدا أصبح لأسباب ذكرنا بعضها من الشخصيات المهمة في تاريخ مصر في تلك الفترة من فترات الحكم في مصر .. و غيرها من الأسباب الشخصية ، و أظن أن أقواها وأظهرها هو الحسد على تلك المكانة و المنزلة السامية

التي تبوأها قراقوش في حكم صلاح الدين الأيوبي ، ولهذا رسم له تلك الصور (الهزلية) . و هناك سببا أخر .. و هو حقد ابن مماتى على الدولة الأيوبية التي أزالت الدولة الفاطمية من مصر ، وكان يتمتع فيها بالسلطة و النفوذ .. أما الآن فهو وزير المالية (تعتبر هذه الوظيفة بمثابة محاسب يسجل في دفتره الخارج و الداخل) .

وينبغي أن نأخذ بعض الصور باختصار من كتاب الفاشوش نفسه :

في مقدمة كتابه يقول :" لما رأيت عقل بهاء الدين قراقوش مخرمة فاشوش، قد أتلف الأمة، والله يكشف عنهم كل غمة، لا يقتدي بعالم، ولا يعرف المظلوم من الظالم، والشكية عنده لمن سبق، لا يهتدي لمن صدق، ولا يقدر أحد من عظم منزلته، أن يرد على كلمته ويشتط اشتطاط الشيطان، ويحكم حكما ما أنزل الله به من سلطان. صنفت هذا الكتاب لصلاح الدين، عسى أن يريح منه المسلمين . "

و ابن مماتي في كل كتابه يستخدم هذه اللغة المعتمدة على السجع ، إلا في القليل النادر

و يسرد قصص قراقوش في الغفلة و الغباء و الحكم غير الصائب . نسوق بعضها (و أغلب الظن إنك ستجد تشابها بين تلك الشخصية و بين جحا ..) :

قيل أنه (أي قراقوش) سابق رجلاً بفرس له، فسبقه الرجل بفرسه، فحلف أنه لا يُعلفه ثلاثة أيام. فقال له السابق : "يا مولاي يموت" فقال له قراقوش : "احلف لي أنك إذا علفته يا هذا لا تعلمه أنني دريت بذلك" .

و في قصة ثانية : أتوه بغلام، وفي يده ديك. فقال: "يا هذا إن هذا الديك لو نقر عينك لكان يقلعها، يا غلمان، خذوا منه دية عينه". فحلف الغلام ألا يقعد في مدينة يكون حاكمها قراقوش أبدا .

و في قصة ثالثة : حُكي عن قراقوش أنه نشر قميصه، فوقع من على الحبل، فبلغه ذلك، فتصدق بألف درهم، وقال :

"لو كنت لابسه ووقع بي لانكسرت."!

والقصص كثيرة جدا .. و لعلنا قد سمعنا عن الحكم الغريب الذي أصدره بقانون للشعب المصري .. و هو أن يدفع كل من يأكل الملوخية غرامة كبيرة .

و قد قلت مازحا ذات يوما عندما سمعت القصة ، و لم أكن قرأت عن هذه الشخصية شيئا : يبدو أن قراقوش حينما أكل الملوخية المصرية ، إما أنه أصيب بالإسهال الشديد .. و إما أنه أعتقد أن الأرنب الموجود في صحن الملوخية ما هو إلا هرة (قطة) قد دسها الطباخ .. و لهذا أصدر هذا المرسوم الأميري ، أو الملكي .

و قصة أخرى ، وما أكثر هذه القصص المبثوثة بين دفتي كتاب الفاشوش .

جاء فلاح إلى قراقوش يشكو لصا سرق من داره دجاجة ، وقدم شاهدا ، وعند استجواب اللص واعترافه ، أعلن قراقوش الحكم التالي : اللص غرم دينارا ، وصاحب الدجاجة غرم دينارا ، والشاهد غرم دينارا أيضا ، وعندما سئل عن حيثيات هذا الحكم البهلواني قال معللا : حكمت على اللص لأنه معتدٍ على مال غيره ، وعلى صاحب الدجاجة لأنه قصر في حفظها ، ولما سئل ما ذنب الشاهد يا مولانا ؟ ! أجاب قراقوش : لأنه تدخل فيما لا يعنيه.

إنها قصة أشبه بقصة توفيق الحكيم حين كتب ساخرا عن الإوز ، بيد أن فيها تهكم على الأحكام الشرعية ، تدل على خبث في الطوية .

لكن المؤرخين الشرفاء ينصفون بهاء الدين قراقوش .. فابن خلكان في كتابه "وفيات الأعيان " يذكر أعماله المجيدة

العظيمة في مصر و عكا .. و المقريزي يردد ذلك في كتابه " السلوك لمعرفة دول الملوك "

" إن رجلا مثل بهاء الدين قراقوش يرتب بدهاء جلوس صلاح الدين على كرس العاضد ويثبته عليه ويرتب له الأمور حتى يتم كل ذلك بهدوء لهو رجل من دواهى الزمان .

و يضيف ابن خلدون في تاريخه ما يدل على أمانته .. فحينما توفي العاضد ، وجلس صلاح الدين للعزاء ، تم جرد ممتلكات العاضد فوجد حسب قول ابن خلدون : " واحتوى على قصر الخلافة بما فيه فحمله بهاء الدين قراقوش إليه، وكان في خزائنهم من الذخيرة ما لم يسمع بمثله ؛ من أصناف الجواهر واليواقيت والزمرد وحلي الذهب وآنية الفضة والذهب،ووجد ماعون القصر من الموائد والطسوت والأباريق والقدور والصحاف والخوان والبواقيل والمناير والطيافر والقباقب والأسورة كل ذلك من الذهب. ووجد من أنواع الطيوب واللباس والمذهبات والقرقبيات والمعلقات والوشي ما لا تقله الأوقار، ومن الكتب ما يناهز مائة وعشرين ألف سفر أعطاها للفاضل عبد الرحيم البيساني كاتبه وقاضيه، ومن الظهر والكراع والسلاح ومن الخدم والوصائف خمسين ألفا ومن المال ما يملأ مائة بيت ".

ووصف ابن خلدون لهذا العز يدل على أن مصر بها كثير من الثروات التي ينعم بها الحاكم وحده .. أما الشعب فكان الله في عونه ..

أراد ابن مماتى أن يشهر بقراقوش .. فأنصفه المؤرخين ، وظلمناه نحن .. بل أن أحد المؤرخين (القفطي) يتهم جد ابن مماتى بالتدليس .. فيقول : " كان من أقباط مصر في عصرنا ، وكان جده جوهريا ، يصبغ البلور صبغة الياقوت فلا يعرفه إلا الخبير بالجواهر ، وهذا يعني أنه كان يدلس (يغش) ،

فلا غرو ولا غرابة أن يمتهن حفيده مهنته في تزييف الحقائق عن بعض الرجال ، ومن يشابه أباه فما ظلم " .

و نستطيع نحن أن نتهم ابن مماتى بالتدليس أيضا .. فمعظم الطرائف الذي حكاها على قراقوش مأخوذة عن طرائف جحا .

و يضيف ابن خلكان : وقد نسب إلى قراقوش أحكام عجيبة ، حتى صنف بعضهم جزءا لطيفا ، سماه « : كتاب الفاشوش في أحكام قراقوش » وينسب إلى السيوطي خطأ ، وإنما هو لأسعد ابن مماتي فذكر أشياء كثيرة جدا ، وأظنها موضوعة عليه ، فإن الملك صلاح الدين الأيوبي كان يعتمد عليه ، فكيف يعتمد على من بهذه المثابة ، والله أعلم. " .

و قد نشر صالح محمد الجاسر; كتابا تحت عنوان: (قراقوش.. المظلوم حيا وميتا) .. و يعتبر هذا الكتاب وثيقة أنصاف لقراقوش تاريخية ، و صلاح الدين الأيوبي ، و الدولة الأيوبية في مصر .

و تلك صفحة مضيئة في تاريخنا ، قلما أن نجد مثلها على مر العصور التي مرت على مصر . صفحة مجيدة نقلناها دون تبصر إلى صفحة سوداء حالكة السواد (كالعادة في طبعنا ، فنحن لا نقرأ ، و لكننا نحب أن نسمع ، و إذا سمعنا نردد دون وعي ، و إذا رددنا أزدنا ما لا ينبغي أن يزاد ، و أخير نصدق ، و يصدق غيرنا) .. و إذا سألت إي إنسان عن قراقوش .. فإنه لا يعرف إلا أنه حاكم ظالم حكم مصر .

الحضارة المصرية الحديثة

برع المصريون كل البراعة في حضارتهم القديمة ، فبنوا المعابد ، و شيدوا الأهرامات ، وكانت تماثيلهم العملاقة تناطح الأفق على أبواب المعابد ، ورسومهم على جدران المعابد تدل على العظمة و الأبهة . حضارة كاملة متقدمة ، بهر بها العالم أجمع .

و شهد العالم أجمعه أن الحضارة المصرية إحدى العجائب السبع في الدنيا . رغم أن العجائب في زماننا ، و في تصنيف البعض قد زادت في عدد الأصفار التي أمام الرقم الصحيح . و تجد أن في كل بلد أكثر من سبع عجائب ..

و بما أن شعبنا يحب الماضي ، و يتمسك به كل التمسك ، و يفتخر به ، و يحاول أن يستعيد مفاخر أجدادنا القدماء ، و نحب أن نكون مثل أجدادنا . في بناء حضارة جديدة يمكن أن تضاف إلى العجائب في عصرنا الحديث ، فلا نكتفي بما صنع أجدادنا ،بل يجب أن يكون لنا بصمات في هذه القرن ، حتى يشهد العالم إننا قد قدمنا حضارة نفتخر بها ، و تسجل ضمن الحضارات الحديثة ، أو العجائب الحديثة .

وإذا أردنا أن نبني أهراماتنا الحديثة ، فهناك العديد من الوسائل و الأفكار العديدة لبناء مثل هذه الأهرامات، وعلى سبيل المثال هذه الفكرة الجهنمية التي خطرت في فكر سكان الأحياء الشعبية ، وهي رمي القمامة في الشوارع حتى تصبح مثل الأهرامات ، و الكتابة على جدران البيوت عباراتنا البذيئة، كما كنب أجدادنا القدماء على جدران المعابد تاريخ حضارتهم المجيد ، كل ذلك قد برعنا فيه أشد البراعة . و لن تجده في أي دولة

متحضرة ، أو متخلفة .. اللهم إلا في بعض البلدان العربية أيضا .. أو الأفريقية .. أو الأسيوية .. من دول العالم الرابع .. حيث أن بعض الدول قد قفزت في التصنيف العالمي ، و تأخرنا في هذا التصنيف .

ذلك المظهر الحضاري الجديد الذي ابتدعناه و ابتكرناه (و نطالب بتسجيله في الموسوعات العالمية) ، يدعونا إلى التفكير، و إعادة النظر في كتابة التاريخ الحديث بالصورة التي نحيا بها ، كتابة فخر و إعزاز بهذه الأعمال الخارقة التي لا يستطيع غيرنا أن يقوم بها .. وضرب المقارنة بيننا و بين الدول ألأخرى سيكون ظلما لهذه الدول التي تهتم بنظافة شوارعها ، ومدنها ، و اهتمامهم بالنظافة ليس من أجل النظافة فقط ، بل من أجل المظهر الحضاري من ناحية ، و من ناحية أخرى من أجل صحة الإنسان .

يضاف إلي هذا المظهر الحضاري الجديد تلك الروائح الكريهة التي تنتشر في المكان فتبعث في النفس النفور (تلك الروائح التي يجب أن نسجلها هي الأخرى ، و نحتفظ ببراءة الاختراع لأنفسنا ، حتى لا يسبقنا أحدا في التسجيل) ، و التي تضيف إلى كثافة السكان كثافة أخرى ، لا أظن أننا بحاجة إليها ، كثافة الحشرات التي تحاول أن تجد متنفس لها للعيش بكرامة في وسطنا ، فتنقل إلينا الأمراض و الأوبئة ، و بهذا نستطيع أن نبني مراكز صحية أو مستشفيات ، و نطالب بأن تكون كليات الطب خارج مجموع كليات القمة ، حتى نجد من يعالج هؤلاء الناس من الأمراض التي يصيبون بها .

سمي ذلك ما شئت من التسمية . و اخترع من الأسماء ما يرضي طموحك ليكون عنوانا لهذه النهضة العظيمة التي تخطط لها نساء مدننا الغلابة ، أو قل بعض أحيائنا الشعبية .

تلك هي الصورة التي أنقلها إليك لها أكثر من جانب .. هذه الظاهرة تختفي في الأحياء الراقية ، و تقل في الأحياء شبه الراقية ، و تظهر بوضوح في الأحياء الشعبية .

فمن المسئول .. البعض سيتهم البلدية .. من أكبر مسئول إلى عمال النظافة في الميدان بأنهم هم السبب ، وأنهم لا يقومون بعملهم على الوجه الأكمل في خدمة المواطنين ..

عمال النظافة في الأحياء الراقية يعملون بجد و نشاط لأن العيون مفتحة عليهم .. و سكان هؤلاء المناطق قد يكونون من الصفوة أو تبع الصفوة .

وعمال النظافة في المناطق شبه الراقية يعملون بجد و نشاط أقل لأنهم سوف يأخذون إكراميات من سكان هذه المناطق . و من يدفع فستجد النظافة سبيلها أمامه ، و من يبخل فإنما يبخل على نفسه .

أما عمال المناطق الشعبية فهم المظلومين في هذه اللعبة .. يحاولون أن يجمعوا تلك التلال من القمامة (برواتبهم الهزيلة ، و إكراملياتهم الضئيلة ، و معدتهم الخاوية) ، و برغم الجهد المبذول ، فإنهم في اليوم التالي سيجدون هذه التلال قد أضيف إليه تلال أخرى ليرتفع البنيان .

عربات النظافة تجوب الشوارع في المناطق الراقية تجد ما يخرجه خدم هؤلاء البيوت من القليل الفائض لديهم في أماكن مخصصة ، و في أكياس مخصوصة و صناديق مخصوصة للقمامة ، قد وضعت في أماكن محددة ، و لهذا سيكون الوضع تحت السيطرة .

عربات النظافة الحديثة المستوردة القليلة ، يضاف إليها بعض أصحاب عربات القمامة القديمة ، يحاولون جاهدا ألا يبقى أي شيء في الشوارع شبه الراقية .

عربات القمامة الحديثة لا تستطيع أن تقترب إلى أحيائنا الشعبية الفقيرة ، و عربات القمامة القديمة ، لا تستطيع أن تهدم هذه المرتفعات المتراكمة على الطرق الرئيسة في أحيائنا الشعبية ، و التي تزاحم السيارات في الطريق ، وتزاحم الناس في سيرهم .

و من العجب أن نسبة القمامة في أحيائنا الفقيرة تكون عالية ، رغم الفقر المدقع . ضاربة رقما قياسيا من الممكن أن نسارع به لندخل به موسوعة جنيس العالمية .

في أحيائنا الراقية ستجد أن القصر أو الفيلا لا تكاد ترتفع عن الأرض إلا دورا أو دورين ، ويحاط بها حديقة خاصة ، وحمام سباحة ، بالإضافة إلى انفصال القصور و الفيلات عن بعضها إما بمساحة خضراء و شارع ، أضف إلى ذلك أن سيارتهم لها مكانها المخصص التي تبيت فيه .

في إحيائنا شبه الراقية ، وإن ارتفعت العمارات علوا شاهقا وناطحت السحاب ، و أصبحت أبراجا أسمنتية ، ستجد أن هناك مسافات شبه فسيحة بين هذه الأبراج ، و ستجد بواب أو طاقم عمال يعملون جاهدين على نظافة المبنى . من الداخل و الخارج .

في أحيائنا الفقيرة ستجد العجب العجاب ، بيوت قد لصقت بجوار بعضها البعض ، و يكاد من يعيش فيها أن يكون بجوار جاره أو مع جاره ، و لن تجد في أغلب تلك البيوت من يعتني بنظافتها إلا أصحابها ، بل ستجد أن النظافة الداخلية تكاد تكون منعدمة ، فالسلم لا يكنس أو يغسل إلا إذا اتفق أصحاب الدور الواحد على نظافة ذلك الجزء الذي يعيشون فيه ، و إن وجدت بواب في تلك البيوت فهو يجمع تلك الفضلات ليرميها في الشارع الضيق مع قمامات أصحاب أو سكاني البيوت الأخرى .

إذن فنحن أمام مشكلة حقيقية في أحيائنا الفقيرة ، هل نستطيع حلها ؟

و الحل السحري هو إعادة تدوير القمامة ، فهي استثمار لثروة ضائعة وفرص عمل للشباب .

في معظم دول العالم نجد أن هناك حاويات للقمامة .. هدفها بالطبع تجميع القمامة في مكان واحد .. ثم تأتي عربة القمامة الحديثة لتفرغ القمامة في .. ، و تمضي إلى حال سبيلها ، حيث مكان تجمع وفرز القمامة ، التي توزع بعد ذلك إلى مصانع عديدة لإعادة تدويرها .

القمامة تختلف بحسب طبيعة المنطقة المأخوذة منها , فإذا كان المستوى الاجتماعي مرتفع فهي تحتوي على كميات من البلاستيك ,والخشب, و الأوراق ، والعكس إذا كان المستوى الاجتماعي منخفض فيكون استغلالها أقل .

و طن الزبالة في القاهرة (فقط) يتكون مواد عضوية تمثل بواقي الخضروات والفاكهة والخبز وزبالة المطبخ , و ورقاً, و زجاجاً ,و بلاستيك وقماش و عظماً و معادن , وهو الأمر الذي يجعل قمامة القاهرة من أغنى أنواع الزبالة في العالم.

و أذكر أن مصريا من أصحاب شركات القمامة ، أراد أن يشتري قمامة دولة عربية بعشرين مليون دولارا ، مع العلم أن سكانها لا يتجاوزن المليونين إلا بقليل . و أظن أنه لو درس المشروع جيدا لكانت قمامة القاهرة وحدها أجدى و أنفع . فلماذا لم يتقدم بعرضه هذا في مصر ، رغم المكاسب التي سوف نكسبها من هذا المشروع .

و رفضت تلك الحكومة ذلك العرض .. مع أن الرجل كان سينشأ العديد من المصانع التي تساهم في تدوير هذه القمامة .. مما يخلق العديد من فرص العمل ..

و من إعادة تصنيع المخلفات .. نستطيع أن ننشأ العديد من المصانع . مصانع البلاستيك والخشب والورق و الملابس و السماد العضوي والزجاج والحديد والألمونيوم (هكذا تفعل الدول المتقدمة) .

و أظن أن تلك فرص عمل لآلاف من العمال الذين يبحثون عن عمل بلا جدوى ، فلا يجدون إلا الفراغ أو الإدمان أو البلطجة ....

التدوير يؤدي إلى التقليل من اعتماد المصانع على المواد الطبيعية كخامات أساسية لمنتجاتها ,مما يؤدي إلى التقليل من استنزاف تلك المواد.

ومن الفوائد البيئية والاقتصادية في تدوير النفايات التقليل من تلوث البيئة التي تعاني منها, نتيجة التخلص من النفايات عن طريق الدفن حية في مقابر خاصة أو الحرق, تقليل الاعتماد على استيراد المواد الأولية, توفير فرص صناعية جديدة لأصحاب رؤوس الأموال وتوفير فرص عمالة جديدة, وتوفير الطاقة .

الورق كمخلفات يتم تجميعه ليصل إلى عدة أطنان يكون ذات قيمة حقيقة .. و خصوصا إننا ، و يا عيني علينا .. مغرمون بتقديم الأوراق إلى الجهات الحكومية ، و أخذ الأوراق منها ، رغم أن العالم كله .. و في جميع الخدمات يعتمد على الكمبيوتر لإظهار البيانات الخاصة لكل فرد من أفراد المجتمع ، أو حتى غريب عن البلد .. و أيضا الخدمات .

كذلك القمامة الناتجة من الفنادق الكبرى تكون مرتفعة الثمن ,لأنها تتكون من بلاستكيات وعلب كولا وغيرها من المعادن, فنحن أمام إناس متحضرين ، ينفقون ببذخ .. سواء أكانوا سياح أو مصريين .

ورغم تلك الفوائد التي تجنى من هذه القمامة ، فإن مشاكل جمة تعترض فوائدها ؛ وهي أن بعض المسئولين عندما يعلموا بقيمة هذه النفايات لا يعطوا للشركات المقابل المادي اللازم, لذلك فيكون ضئيلا وبالتالي من يؤدي هذه الخدمة يحصل على راتب ضعيف جداً .

و من الأخطار التي نواجهها في مجتمعنا أن بعض المصانع تستخدم المخلفات بشكل غير آدمي للآدميين فتأخذ

النفايات وتصنع منها لعب الأطفال ، يا عيني على الفن ..(أظن أن الصينيين قد سبقوا العالم في ذلك) ، وتكون ملوثة بمواد سامة .

كذلك هناك من استغلوا مخلفات المستشفيات (مصانع بير السلم) وأعادوا تصنيعها في حفاضات للأطفال والنساء وتباع بأسعار زهيدة الثمن على الأرصفة حتى يستفيد من ذلك أصحاب الضمير السعيد ... كذلك يتم تصنيع أربطة الضغط وتباع أيضاً بأسعار رخيصة بعيداً عن الصيدليات, بما يضر بصحة الإنسان إلى جانب الأكياس البلاستيك التي تدخل في كل شيء ، حفظ الأطعمة ، بيع الخضار والفواكه .. ألخ ..

الآثار السلبية للقمامة كثيرة جداً ، و لها خطورتها على صحة الإنسان , و نحن نتفنن في اكتساب بعض العادات السيئة التي تستخدم للتخلص من القمامة مثل الحرق المفتوح في الشوارع .. خنقة بخنقة المهم نتخلص من القمامة و من الحشرات المصاحبة لها ..، وهى كارثة بيئية .

إلى جانب حرق قش الأرز وهو مسئول عن السحابة السوداء , وكذلك الأبخرة الناتجة من ذلك تؤثر بشكل سلبي على جلد الإنسان, وتصيب الرجال والنساء بالعقم بجانب أنواع الأمراض السرطانية المختلفة .

إعادة تصنيع النفايات يعتبر الحل الأمثل للتخلص منها بيئياً , ويعود بالنفع الاقتصادي الوفير عند توفر رأس المال والتكنولوجيا والأيدي العاملة المدربة .

ومن فوائد تدوير النفايات تخفيض ميزانية عقود النظافة, وخلق فرص استثمارية بسبب توفر المواد الخام ,صنع منشآت صغيرة ومتوسطة الحجم, وإحلال بعض المنتجات البديلة مثل منتجات لدائن بدل الخشب .

و من العجب إننا ندفع على فواتير .. رسوم النظافة ..

المهم أننا مازلنا نرمي القمامة في الشوارع .. و لا نجد من يستفيد منها . بل نجد من يضرنا منها .

توفيق الحكيم و شجرة الحكم

توفيق الحكيم رائد المسرح العربي الحديث الجاد الرصين .. ألف كاتبنا العظيم العديد من المسرحيات و القصص و الكتب .. و كل كتاب يحمل فكرة محددة ، يدافع عنها بحرارة و حماس .

و قد اشتهر الحكيم و حماره الذي ألف عنه العديد من الكتب منها " حمار الحكيم .. حماري قال لي .. حماري و حزب النساء .. حماري و مؤتمر الصلح .. " و نحن نعرف قيمة الحمار ، وخصوصا في الأرياف .

و حمار الحكيم حمار ذكي يتحاور و يناقش ، و لكننا جعلنا من الحمار رمزا للغباء ، و حينما نسخر من أحد نتهمه بأنه حمار

و أنا أدعوك إلى قراءة هذا الكتاب .. كتاب شجرة الحكم .

هل قرأت كتاب توفيق الحكيم " شجرة الحكم " .. أظن الجيل الجديد لم يقرأ هذا الكتاب ، وأظن أيضا أن الأجيال التي سبقته إن قرأته فقد نسيته في دوامة الحياة .. و العجب أنه حين صدور الكتاب سنة 1945 لم يتح قراءته إلا لعدد محدود من الناس ، رغم الضجة التي أثيرت حوله.. للصراحة الشديدة التي عالج بها فكرته عن الحكم .

فالكاتب الكبير توفيق الحكيم وزان بين عدد من فنون الأدب ، الفن المسرحي ، و فن القصة القصيرة ، وفن المقالة ، في قضية من أخطر القضايا التي تواجه أي مجتمع في نظام

حكمه الذي يعتمد عليه في تنظيم حياته من كل النواحي السياسية أولا ، ثم تنظيم حياته الاقتصادية و الاجتماعية .

و مادمت لم تقرأ هذا الكتاب ، و أظن أنك ستبحث عنه و لن تجده إلا بعد عناء شديد .. و اسمح لي أن اقتطف بعض العبارات من هذه الكتاب لنعرف كيف كان الحكم في بقايا أسرة محمد علي تحت الاحتلال الإنجليزي ، أو لنقل الحكم الإنجليزي برعاية أسرة محمد علي .

يقول في مقدمته : " ففي مصر من بلاد الشرق ، تتمثل المصلحة الشخصية في ذات رجل الحكم ، في شهوة الحكم للحكم ورفاهيته و سلطانه و سيطرته و أبهته و عزه ".

و يقول أيضا : " في أمثال مصر من البلاد يستطيع السياسي أن يتجرد من مآرب ذاته و مطامع شخصيته عند مواجهته للمبادئ الوطنية و القومية " .

و يقول أيضا : " ما من شك عندي في أن أكثر رجال السياسة و الحكم في مصر قد خالجتهم يوما أعظم مشاعر التضحية و البطولة ،ولكن إلى أي وقت عاشت في قلوبهم هذه المشاعر ؟ "

ثم يقول : " ما أكثر هؤلاء الأبطال الذين يبدءون بالعذاب و التضحية و التشريد ، وينتهون إلى اللذائذ و الأرائك و العيش الرغيد " .

و من الواضح أن توفيق الحكيم يتكلم عن الصفوة الحاكمة في عصره ، أيام الاحتلال الإنجليزي لمصر، في ظل حكم أسرة محمد علي ، و هو وصف ينطبق على الصفوة الحاكمة في أي دولة من دول العالم الرابع (أعتذر لدول العالم الثالث) . فهذه الصفوة تبدأ كفاحها السياسي بكثير من المبادئ و الأفكار التي تتمنى أن تحققها ، فقد أعلنتها في بيانها الانتخابي الذي تتشدق به أثناء الحملة الانتخابية ، و ما أن تستتب (دون دال) حتى تنسى تلك الأحلام الوردية التي منت بها ناخبوها نفسها .

و البرنامج الانتخابي لا يحتاج في هذا الزمن إلا لرضاء الملك ثانيا وحاشيته ، و المندوب البريطاني أولا . . و هنا نتذكر ثلاثي أضواء المسرح .. شالوا ألدو جابوا شاهين .. ألدو قال مش لاعبين . (و ألدو هذا كان حارس مرمى الزمالك العملاق) .

◆

و في حوار مسرحي (في الآخرة) يقول :

صاحب الدولة : أي لذة ، قد قلت منذ أن أدخل النظام البرلماني .

صاحب المعالي : لقد أصبح أي شخص من السهل عليه أن يكون وزيرا بدل أن يكون موظفا في الدرجة الثالثة .

صاحب الدولة : وا أسفاه ، لم تعد الكفاءة شرط لدخول الوزارة .

صاحب المعالي : و متى كانت الكفاءة يا دولة الباشا في مصر شرط لدخول الوزارة .

ولا أظن أننا نحتاج إلى تعليق على هذا الكلام ، أو ذلك الحوار ، فأنت ترى في كثير من الأحيان أن هذا المنصب لا يحتاج إلا إلى كفاءة في الحديث المنمق ، أو التصريحات البلاغية ، خصوصا أن التلفاز والجرائد قد أتاحا لمجموعة من الوزراء أن يدلوا بتصريحات قد تكون معدة سلفا ، معدة بأسلوب منمق منسق يرضي (يريح) المستمعين البسطاء ، يفرحهم أن هناك أمل في المستقبل القريب أو البعيد أن تكون الحياة غير الحياة .

◆

و ينتقل في موضع آخر ليقول :

صاحب الدولة : أن الحال في مصر أعجب من ذلك ، أن الشعب لا ينتخب و لا يدري ما هو الانتخاب ، ولكنه يرى معدات " الموسم " قد نصبت ، و يسمع الطبل و الزمر ، و نجد

أشخاص قد أقبلوا بالسيارات يجمعون أصواته بالنقود و الوعود ، فشأنه في موسم الانتخاب كشأنه في موسم دودة القطن سواء بسواء ، حيث يرى سيارات مقاولي الأنفار الترحيلة قد أقبلت تجمع الأنفار بالحبوب و النقود " .

ولا أظن أن الحال قد تغير ، فالحال هو الحال قبل توفيق الحكيم ، و بعد توفيق الحكيم ، الحال هو الحال ، و مفهوم الانتخابات لا يتغير أبدا ، و لا أظن أنه سوف يتغير في القريب العاجل ، فالدعاية الانتخابية تعتمد على أكثر من أسلوب؛ الكلام المنمق ، والوعود الخلابة ، و النقود البراقة التي تبهر أعين الناخبين ، و الرمز الغريب .

◆

و يقول في موضع آخر :

الزعيم : لقد كنا ننسى أنفسنا على الكراسي ، فتمتد أيدي المتبقين و المستغلين إلى جيوبنا دون أن نشعر ، فكثرت المحسوبية و الوصولية " .

و تلك آفة أخرى يتمتع بها مجتمعنا المصري ، أو قل مجتمعات دول العالم الرابع ،(أعتذر مرة أخرى لدول العالم الأول) ، فالناخب يجد حوله العديد من الأشخاص التي يسهلون له حملته الانتخابية ، و في نفس الوقت يستفيدون من هذه الحملة إما بطرق مباشرة ، و إما بطرق غير مباشرة .

◆

و يقول في موضع آخر :

المهندس : إني بطبعي و روحي رجل ديمقراطي ، لم أكن أعرف مدى هذه الطبيعة في نفسي حتى تسلمت مقاليد الحكم ، فإذا أنا حريص كل الحرص على عدم الانزلاق إلى الاستبداد حتى في ظروف قد رؤى فيها استعمال الشدة ، لقد اجتزت أزمات

مخيفة ؛ هددت البلاد بالمجاعة ، وكانت موقعة المواقع هي مكافحة الغلاء ، ومحاربة المستغلين ،وتوفير الغذاء ...

المفتي : حقيقة مسألة تنظيم التموين في البلاد كانت أخطر المسائل ، وقد عجزت العجز الفاضح في معالجتها ، فقد بلغ الحال فيه أن من معه مال هو الذي يأكل ، أما الآخرون ، وهم الأغلبية ....

و هل يحتاج الأمر إلى تعليق ؟ . و أظن أن التعليق يفسد هذا النص الجميل . و لكن لابد من التعليق .. و لكني أفضل أن يتم التعليق من جانبكم . فأنت ترى كل ما حولك في ارتفاع جنوني .. و أن ما تأخذه يتبخر بعد أن تأخذه ، فور وصولك المنزل .. و يفضل أن يغادر جيبك دون انتظار .

◆

و يقول في موضع آخر :

الخواجه : الأمر سهل جدا ، تطلب إلى كل الموجودين بالجنة من أجل نصر القادرين أن ينتقلوا إلى ذلك الركن ليكونوا هم الشعب الذي يحكمه هؤلاء .

رضوان : و أين هو المجنون من المصريين الغابرين الذي يقبل في الجنة أن يحكمه هؤلاء ، بعد أن أنقذه الله منهم في الدنيا .

و لا تعليق أيضا .

◆

و يمضي قائلا على لسانهما أيضا :

الخواجه : نوع الحكومة ، ديمقراطية طبعا .

رضوان : ديمقراطية على طريقة مصر .

الخواجه : طبعا .

ويبدو أن توفيق الحكيم – الذي سافر إلى فرنسا – لا يعرف إلا الديمقراطية المصرية ، وأظن أنه لو عاش إلى أيامنا لسمع عن أنواع جديدة من الديمقراطية ، وأحدثها على الخريطة الدولية الديمقراطية الأمريكية على الطريقة البوشية (نسبة إلى جورج بوش الابن) ، وهي ديمقراطية ابتدعها في العراق و أفغانستان، و أزهق من أجلها آلاف الأرواح الكثيرة من شعبه و شعوبهم ، ومازال رغم ذهابه عن الحكم . و يحاول أن يطبقها في الوطن العربي أجمع ، أو قل في دول الشرق التي يحاول أن ينقذها من برائن حكامها الاستبداديين (حسب رأيه) الذين لا يأبهون لنظريته البوشية .

◆

و يقول بعد ذلك :

الخواجه : ما شاء الله – بل إنهم لمن المصلحين – فهم إذا جاءوا الحكم أصلحوا من الفور أحوالهم و أحوال المقربين إليهم .

رضوان : فقط .

الخواجة : إن مدة الحكم قصيرة في الغالب ، فهي لا تكفي عادة إلا للإصلاح في نطاق تلك الدائرة .

رضوان : و بقية المحكومين من الشعب ؟

الخواجه : الشعب قد أعتاد الصبر ، لأنه لو انتظر دوره في الإصلاح لكان عليه و لا شك أن ينتظر عشرات الأعوام .

رضوان : و هذا الشعب هو الذي ينتخب حكامه هؤلاء ؟

و إلى هنا و أظن أنه من الأفضل قراءة كتاب توفيق الحكيم " شجرة الحكم " فقد تخرج بأفكار جديدة عن العصر الذي عاش فيه توفيق الحكيم . أو قد ترى رأيا آخر من خلال الانتخابات التي تراها .. فأنت ترى أيام الانتخابات فقط .. العجول التي تذبح .. الأموال التي توزع .. الخ ..

و أنت ترى أن توفيق الحكيم لم يستخدم الحمار للركوب فقط ، بل استخدمه كرفيق في إيصال فكره إلى الناس .

إن الله لا يغير بما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

الانتخابات و أنا

أنا لن أدخل الانتخابات ، ولن أساهم فيها بأي شكل من الأشكال ، ليس لأنني أكره تلك العملية ، ولكن لما يدور في تلك العملية من مهازل .

ستقول لي : لماذا ؟ و هذا حقك الدستوري و القانوني . فالانتخابات هي عملية صنع القرار، والتي يقوم بها الشعب باختيار فرد ينوب عنهم لمنصب رسمي أو شبه رسمي. هذه هي الطريقة المعتادة التي تتبعها الديمقراطية الحديثة لملء المقاعد في المجلس التشريعي، وأحيانا في السلطة التنفيذية والسلطة القضائية، والحكم المحلي والإقليمي. كما تستخدم هذه العملية أيضا في كثير من الأماكن في القطاع الخاص ومنظمات الأعمال من النوادي والجمعيات الطوعية والشركات.

و تظن أن الإجابة سهلة أو صعبة سيان ، و سوف أجيبك على كل حال بدبلوماسية زائدة و ابتسامة لا تفارق وجهي .رغم إنني لست سياسيا ، ولا أظن إنني سأكون ذلك في يوم من الأيام .

لا تظن إنني أهرب من الانتخابات لسبب من الأسباب المعروفة ، فأنا لا تفرق معي النزاهة ، و لا ذلك الصراع المميت بين السادة المنتخبين المحترمين ، و لا ... و لا ....

و إنما أرفض أن أشارك في الانتخابات لأسباب أخرى بسيطة جدا ، لن تخطر على بالك ، و إن كنت سمعتها أثناء الدعاية الانتخابية .

أولا : المنتخب يستأجر بعض الناس ليهتفوا له ، و هذا الهتاف لا يليق بي ، و لا أرضاه ... يقول هؤلاء المستأجرين : يا ابن الدايرة (هكذا سمعتها) ، أو باللغة العربية ، يا ابن الدائرة (و أحمد الله إني لا أرشح نفسي في بلاد الشام ، فهؤلاء المستأجرين (بضم الميم) ، يقولون : يا ابن الضيعة) من يرضى على كرامته أن تكون أمه بهذا الوصف البشع .سواء في مصر أو غيرها من البلاد التي تعتمد على هؤلاء المستأجرين .

ملحوظة : الدائرة الانتخابية في مصر تساوي الضيعة الانتخابية في بلاد الشام .

و السبب الثاني : إنني سوف أبذل من الوعود الكثير و الكثير ، و أنا واثق إنني لن ألبي أي وعد من هذه الوعود ، إلا القليل ، وما فيه مصلحة لي (ولا يقدر على القدرة إلا صاحب القدرة وحده) و هذه أيضا طبيعة بشرية . و أظن أنه لو أتيحت لي أن ألبي الوعود التي قد قطعتها على نفسي في الانتخابات ، فسوف أكون شاذا في هذه المسألة ، فأغلب نوابنا يقوم بمشروع أو مشروعين هزيلين أثناء الانتخاب أو بعده ، وكفى المؤمنين شر القتال ، و إن شاء الله في الانتخاب القادمة سوف يقوم بمشروع أو آخر حتى يتم انتخابه مرة أخرى ، وهكذا دواليك ، فهل ترضى لي أن أكون كذلك .

و السبب الثالث : إنني لا أحب أن أهاجم غيري بسبب أو بدون سبب . أو أنشر عن منافسي الشائعات الصادقة أو الكاذبة ، فالمنافسة لن تكون شريفة ، فقد يكون هذا السلاح هو سلاح خصمي أيضا ، صدقا أو كذبا .. ، و مع ارتفاع المنافسة ، يشتد الوطيس ، و تكثر الأسلحة المشروعة أو غير المشروعة في الميدان ، و الهدف النهائي هو النجاح الانتخابي .

و أنت ترى في بعض البلاد تتم الفضائح علنا ، و على صفحات الجرائد ، وشاشات التلفزة ، و تتناقلها وكالات الأخبار كمادة دسمة ، لقد استغل منصبه أيام كان في منصب كذا .. له علاقات حميمة مع بعض الـ .. سواء من الدائرة .. أو موظفيه .. من أبناء دائرته أو من خارجها .. الخ .

وأنا لا أستطيع أن أعتذر عما بدر مني .. و إن كان كلينتون قد اعتذر ، فهذا شأنه ، و إن كان الشعب الأمريكي قد قبل الاعتذار فهذا شأنهم .. أما نحن فلا نقبل اعتذار ، بل نزيد من عدد الجرائم الأخلاقية التي يرتكبها الإنسان ذو المنصب الحساس .. و قد نزيد إليها جرائم أخلاقية لم يرتكبها .. و كله كلام في الهواء ، سوف ينسى بعد حين .

و السبب الرابع : إنني لا أحب أن أنام خارج بيتي ، فأنت ترى هؤلاء قد وضعوا أيدهم أثناء الجلسة وراحوا في سبات عميق ، وكأن هذا المجلس فندق خمس نجوم ، يستريح فيه من يريد أن يستريح . فالكلام الدائر في الجلسة لا يعنيهم ، ولن يعنيهم .. فوقت التصويت إما أن يرفع يده أو لا يرفعها .. و في النهاية سواء كان يقظا أو نائما ، رافعا يده أو خافضها سيسمع كلمة : موافقة بالإجماع .

كان الله في عون العضو ، فهو يعمل ليل نهار من أجل مصلحة ما .. أو دائرته ، وإذا دخل بيته ليستريح فهناك الأولاد بهمومهم الكثيرة المتعددة ، و مشكلهم المتزايدة التي لا تنتهي ، وهناك الزوجة بطلباتها الكثيرة الدائمة ، و كأنه في المجلس .

و السبب الخامس : سبب شخصي بحت .. فالدعاية الانتخابية تحتاج إلى أموال طائلة لا أظن إنني قد استطيع توفيرها .. صور ويافطات تنتشر في الدائرة (الدايرة) .. صوان ينصب للحديث إلى أبناء الدائرة ، مستشار خاص ذو كفاءة بلاغية يكتب البرنامج الانتخابي .. ثم مبالغ مالية لشراء بعض العجول لتذبح و توزع على أبناء الدائرة الفقراء و متوسطي الحال الذين لا

يرون اللحم إلا في فترات معينة في حياتهم ، و منها هذه الفترة الانتخابية ، ثم مبالغ نقدية توزع لضمان الصوت الانتخابي ، بالإضافة إلى بعض الهتيفة الذين يهتفون باسم الناخب لتلميع صورته .. و بعض البلطجية لإرهاب المنافسين . ثم بعض الملابس الجديدة حتى أظهر أمام الجمهور بمظهر مناسب .. أنيق .

ستقول لي أن أنتظر المساهمين بالتبرع لحملتي الانتخابية .. فهم دائما مستعدون لمساعدة من يظهر لهم الود .

و سأرد عليك إنني لا أنتظر الإحسان الذي يقوم على المصلحة . فهؤلاء المتبرعين ،لا يقدمون معونتهم لسبيل الله ، إنهم ينتظرون نجاحك ، لترد إليهم ما دفعوا .. إن لم يكن أضعاف ما أنفقوا على حملتك .

وقد يكون من طلباتهم .. تعيين قريب في أي مصلحة حكومية ترفض التعيين ، أو تمرير مشروع غير موافق عليه قانونيا .

و السبب السادس : أن هناك فرق بين كلمة نائب .. و نايب .. أبحث عنه أنت .

أنا يا سيدي أحب أن أعمل بصمت ، و بصمت شديد ، و أن يكون عملي ظاهرا للعيان، وشاهدا على أن أقوالي مثل أعمالي . و ليس معنى العيان أن استغل شاشات التلفزة للظهور .

المتنبي في مصر

مما لا شك فيه أنك درست أثناء مراحل التعليم المختلفة قصيدة أو اثنتين من قصائد المتنبي العديدة في كتابك أو في ديوانه المطبوع ، ودرست أيضا مقتطفات من سيرة حياته، و يا لها من سيرة .. و قد ألف الكتاب الكثير من الكتب عن المتنبي تحفل المكتبة العربية بها .. فعميد الأدب العربي الدكتور طه حسين قد ألف كتابه العظيم " مع المتنبي " أو كتاب " المتنبي " لمحمود محمد شاكر. و غيره من الكتب التي تزخر بها المكتبة العربية .

يقولون : أنه أحد أعظم شعراء العرب، وأكثرهم تمكناً باللغة العربية وأعلمهم بقواعدها ومفرداتها، وله مكانة سامية لم تتح مثلها لغيره من شعراء العربية. فيوصف بأنه نادرة زمانه، وأعجوبة عصره، وظل شعره إلى اليوم مصدر إلهام ووحي للشعراء والأدباء. وهو شاعر حكيم، وأحد مفاخر الأدب العربي. وتدور معظم قصائده حول مدح الملوك. ويقولون عنه بأنه شاعر أناني ويظهر ذلك في أشعاره ، وديوانه المطبوع .

أما إنه أناني .. فذلك واضح من خلال شعره ، فقد كان يمدح نفسه أولا ، قبل أن يمدح الآخرين .. و أنا أعتقد أنه شاعر كاذب ، و لم يصدق في شعره إلا حينما مدح الأمير سيف الدولة الحمداني ، و في هذا أيضا كان كاذبا ، فلم يكن يمدحه فقط من أجل المال ، أو من أجل الشهرة ، و إنما كان يطمع إلى أكثر من ذلك ، إلى السلطة .. إلى ولاية يحكمها .

ذلك هو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد، أبو الطيب الملقب بالمتنبي .

مدح سيف الدولة الحمداني ، ونال عطاءه ، بل حظا عنده بالمكانة العليا ، مما سبب له العداوة و البغضاء ، و لكن المتنبي لم يكن يريد ذلك فقط ، كان يريد أن يتولى ولاية ليحكم فيها .. و لأنه لم ينل ما يريد ، بالإضافة إلى أعدائه - بين خاصة حاشية الأمير - فقد قرر الرحيل عن حلب ، فقد أيقن أن سيف الدولة يريده فقط شاعرا ، و توجه إلى مصر .

كانت الحال في مصر من أسوأ الأحوال .. فمصر كانت تحت حكم العباسيين الذين لا حول لهم ولا قوة ، خلافة بالاسم فقط ، فالدولة العباسية مقسمة على نفسها – كالعادة - ، كل قسم يحكمه حاكم إما عربي ، و إما غير عربي لا يربطه بالعرب إلا أنه مسلم ، وهو غالبا لا يعرف اللغة العربية ، و إن كان يعرفها فهو يتكلم يها بصعوبة ، و يفهمها أيضا بصعوبة ، في حلب كان الحاكم عربي من أصل عربي ؛ هو سيف الدولة الحمداني ، أما في مصر فكان الحاكم الفعلي أحد أفراد الأسرة الإخشيدية ، وهو حاكم غير عربي .

كان حاكم مصر في ذلك الوقت هو كافور الإخشيدي ، عبد أسود استطاع أن يقفز إلى السلطة (ليس انقلابا أو ثورة ، ولكن فهلوة) ، و أن يكون دولة في مصر ، لا يفقه اللغة العربية ، و لا يتكلم بها إلا بصعوبة بالغة .

مدحه المتنبي بقصائد غريبة .. لا أظن أن كافور قد فهم هذا الشعر .. و أظنه أيضا لم يفهم مقصد المتنبي من هذه الزيارة ، بل كان همه أن يمدحه الشاعر ، أي شاعر كان ، و أن يقال أن شاعرا عظيما مثل المتنبي قد مدحه ، و في المقابل أن يعطي الشاعر من الدنانير و الدراهم و طيب الإقامة ما يشاء .. و المتنبي كان يريد شيئا مختلفا .. كان يريد أن يكون حاكما

على أي قطعة أرض خضراء ، كان يريد أن يحقق في مصر ما لم يستطع أن يحققه في حلب ، أن تكون له ولاية يحكمها .

المتنبي وصف مصر فأبدع في الوصف ، و وصف أهل مصر فأبدع في وصفهم ، و لكنه أيضا أساء إلى مصر ، و أساء إلى أهل مصر ، في الحالة الأولى كان منافقا ، لأنه أراد أن يحقق حلمه في ولاية يحكمها ، و في الحالة الثانية كان صادقا ، لأنه فقد الأمل في أن ينال ما يريد .

مدح كافور الإخشيدي مدحا أشبه بالهجاء .

كفى بك داء أن ترى الموت شافياً

وحسب المنايا أن يكن أمانيا

وعندما لم ينل ما يريد من كافور الإخشيدي العبد الأسود ،قرر أن يترك مصر ، وبالفعل تركها في ليلة عيد ، يقول :

عيد بأية حال عدت يا عيد بما مضى أم لأمر فيك تجديد

و كأنه يمهد للمكان الجديد الذي يرضى طموحه و أمله في أن يوليه أحدا ولاية ، في أي مكان .

و فيها يهجو كافور و المصريين فيقول :

صار الخصي إمام الآبـقين بها

فالحر مستعبد و العبد معبود

نامت نواطير مصر عن ثعالبها

فقد بشمن و ما تفني العناقيد

العبد ليس لحر صالح بأخ

لو أنه في ثياب الحر مولود

لا تشتر العبد إلا و العصا معه

إن العبيد لأنجاس مناكيد

و الحمد الله أن المتنبي قد فارق مصر إلى غير رجعة ، و الحمد لله أنه قتل في الطريق إلى أين .. قتله بيت شعر هو قائله . و الحمد لله أنه لم يحكم أي جزء في مصر .

و من العجب العجاب أن يبدأ المتنبي حياته بإدعاء النبوة , وأن يسجن من أجل ذلك ، فما بالك إن صار حاكما على ولاية في أي مكان .

الأفغاني في مصر

كان الأفغاني يقول عن المصريين : " أنتم معشر المصريين قد نشأتم على الاستعباد ، وتربيتم في حجر الاستبداد .. ، وكلهم يشق جلودكم بمبضع نهمه ، ويهيض عظامكم بأداة عصفه ، و يستنزف قوام حياتكم بما يتحلب من حياتكم من عرق جباهكم بالعصا و المقرعة و السوط ، و أنتم كالصخرة الملقاة في الفلاة ، لا حس لكم و لا صوت . "

هذا هو رأي جمال الدين الأفغاني ، في المصريين ، رأي يدل على الاستهانة بأبناء الأمة المصرية ، و لكنه في ذات الوقت يدل على استكانة المصريين للحاكم ، و لكي لا يكون هذا الرأي مبتورا على نظام من قال " لا تقربوا الصلاة " ، فإنني سأتتبع مسيرة حياته .

لعلك مثلي قد قرأت عن جمال الدين الأفغاني في كتابك المدرسي فتجد أنه أحد العظماء الذين ألهبوا شرارة الثورة العرابية ، و بجانبه العديد الأبطال المصريين الشرفاء ، المصريين الذين يريدون أن يروا حاكم بلدهم عادلا ، محبا لأرضها ، داعيا إلى المساواة و العدل .

و قد يقع معك بالصدفة كتاب أو أخر فتجد أن المعلومات التي ثبتت في ذاكرتك إن هي إلا تاريخ زائف لا يمت إلى الحقيقة بشيء ، و تكشف أن تلك الشخصية ما هي إلا وهم و خداع و سراب ، و تتعجب لمصلحة من يزور التاريخ .

فمن هو جمال الدين الأفغاني ؟

جمال الدين بن صفدر بن على بن محمد الأفغاني ، وواضح من اسمه أنه من بلاد فارس (إيران الآن) و هذا ما

يثبته كتاب ابن أخيه ميرز لطف الله خان الأسد ابادى " جمال الدين الأفغاني الأسد آبادي المعروف بالأفغاني " : وفيه ما يثبت وجود عائلة جمال الدين في إيران وانعدام أي اثر لهذه الأسرة في أفغانستان .

فلماذا نسب إلى الأفغان ، و الإجابة بسيطة .. لأنه ولد في "أسعد آباد" إحدى القرى التابعة لخطة كونار من أعمال كابل عاصمة الأفغان، ووالده السيد صفدر من سادات كنر الحسينية .

و الرجل من طائفة الشيعة ، يقول بعض الباحثين : هو ماسوني ، إيراني مازندراني (كل كلمة من هذه الكلمات لها حكاية طويلة) من أجلاف الشيعة نفذ كثيرا من المؤامرات الخطيرة في العالم الإسلامي – بسرية تامة – وعملت الماسونية واليهودية على تصويره بطلا وحكيما من حكماء الإسلام وهذه الحقائق تدل على أنة يجب أن يعاد النظر في تقويم بعض الرجال – الذين نفتخر بهم - في عالمنا الإسلامي .

بدأ الأفغاني حياته في بلاد الأفغان في خدمة الحكومة على عهد الأمير دوست محمد خان وكان أول عمل له مرافقته إياه في حملة حربية جردها لفتح هراة، و مات الأمير أثناء الحصار ، وتولى بعده شير خان أحد أبنائه الثلاث ، فوقع الخلاف بين الأمير الجديد وأخويه، إذ أراد أن يكيد لهم ويعتقلهم، فانضم السيد جمال الدين إلى محمد أعظم أحد الأخوة الثلاثة، لما توسمه فيه من الخير ، و ما توسمه فيه أيضا من السلطة .

بقي السيد جمال الدين في كابل لم يمسسه الأمير بسوء، احتراماً لعشيرته وخوف انتفاض العامة عليه حمية لآل البيت النبوي ، حتى لو كان هذا الانتساب لأبعد جد لا يهم .

وهذه المرحلة كان لها أثرها في الاتجاه السياسي للسيد جمال الدين، فقد رأيت ما بذلته السياسة الإنجليزية لتفريق الكلمة (فرق تسد .. أسلوبها المشهور في حكم البلدان التي تحتلها) ،

ودس الدسائس في بلاد الأفغان، وإشعال نار الفتن الداخلية بها، واصطناعها الأولياء من بين أمرائها .

و استأذن جمال الدين مولاه للذهاب إلى الحج ، و قد أبطن ألا يعود أبدا إلى بلاد الأفغان مرة أخرى ، و السبب الحقيقي أنه شعر أن محمد أعظم لن يكون له شأن .. و أن أخاه قد سيطر على الموقف سيطرة تامة .. و ظل طيلة حياته في ترحال دائما ، ما إن يستقبل في بلد بالترحاب الشديد حتى يتم طرده منها بالإهانة الشديدة أيضا .

كانت محطته الأولى الهند بلاد الحب و المرح .. بلاد الغنى و الفقر معا ، وقد سبقته شهرته إلى تلك الديار (هكذا يقول ابن أخيه في كتابه) ، لما عرف عنه من العلم والحكمة ، وما ناله من المنزلة العالية بين قومه ، ومن الذي أذاع ذلك عنه ، في زمن كان الانتقال فيه من أصعب الصعوبات (أظن أن هذه الشهرة قد أذاعها المحفل الماسوني) .

ولم يكن يخفى على الحكومة الإنجليزية عداؤه لسياستها، وما يحدثه مجيئة إلى الهند من إثارة روح الهياج في النفوس، خاصة لأن الهند كانت لا تزال تضطرم بالفتن الطائفية ، و تغلي بالاضطرابات من جراء الاستعمار ، على الرغم من إخماد ثورة سنة 1857 م ، فلما وصل إلى التخوم الهندية تلقته الحكومة بالحفاوة والإكرام ، ولكنها لم تسمح له بطول الإقامة في بلادها ، وجاء أهل العلم والفضل يهرعون إليه، يقتبسون من نور علمه وحكمته، ويستمعون إلى أحاديثه وما فيها من غذاء العقل والروح، والحث على الأنفة وعزة النفس، فنقمت الحكومة منه هذا ، فرفعت له الكارت الأحمر ، ولم تأذن له بالاجتماع بالعلماء وغيرهم من مريديه وقصاده، إلا على عين من رجالها، فلم يقم هناك طويلاً، ثم أنزلته الحكومة إحدى سفنها فأقلته إلى السويس.

و لكنه رحل إلى الآستانة ، وهناك لقي استقبالا حافلا ، و عين عضواً في مجلس المعارف، فاضطلع بواجبه، وأشار

بإصلاح مناهج التعليم، ولكن آراءه لم تلق تأييداً من زملائه، سخط شيخ الإسلام حسن فهمي أفندي عليه، اتخذ من بعض آرائه مغمزاً للنيل منه بغير حق (رأي ابن أخيه) ، ورميه بالزيغ في عقيدته ، واغتنمها فرصة للإيقاع به، وألب عليه الوعاظ في المساجد، وأوعز إليهم أن يذكروا كلامه محفوفاً بالتفنيد والتنديد ، فغضب السيد لمكيدة شيخ الإسلام، وطلب محاكمته، ولكن الحكومة انحازت إلى شيخها .. ابن البلد. و مرة ثانية ترفع له الحكومة التركية الكارت الأحمر ، وطردته من بلادها .

جاء السيد جمال الدين إلى مصر لا على نية الإقامة بها، بل على قصد مشاهدة مناظرها، واستطلاع أحوالها، ولكن رياض باشا وزير الخديوي إسماعيل في ذلك الحين رغب إليه البقاء في مصر، وأجرت عليه الحكومة راتباً مقداره ألف قرش كل شهر، (عشرة جنيهات ؛ راتب محترم يبلغ في زماننا هذا أكثر من مليون جنيه) ، و أسكنته في بيت (مثل اللاعبين المحترفين في كرة القدم .. أو المدربين الأجانب) ، وكان أسلوبه الطريف، وطريقته المبتكرة سببا في إقبال الناس عليه ، وبالتالي إقبال العلماء على دروسه . وكانت مدرسته بيته ، ولم يذهب يوماً إلى الأزهر مدرساً ، وإنما ذهب إليه زائراً، وأغلب ما يزوره يوم الجمعة، وكان أسلوبه في التدريس مخاطبة العقل، وفتح أذهان تلاميذه ومريديه إلى البحث والتفكير، وبث روح الحكمة والفلسفة في نفوسهم ، وتوجيه أذهانهم إلى الأدب، والإنشاء، والخطابة، وكتابة المقالات الأدبية، والاجتماعية، والسياسية، فظهرت على يده نهضة في العلوم والأفكار أنتجت أطيب الثمرات.

و بدأ الضغط الأوربي على مصر في أواخر سنة 1875 ، وأوائل سنة 1876 ، وهذا التدخل كان من الأسباب الجوهرية التي حفزت النفوس إلي التبرم بنظام الحكم ، والتخلص من مساوئه ، لأن سياسة الحكومة هي التي أفضت إلي تدخل الدول في شؤون مصر وامتهانها كرامة البلاد واستقلالها ، ومن هنا جاءت النهضة الوطنية والسياسية ، ووجدت مبادئ حكيم الشرق

وتعاليمه سبيلاً إلي النفوس ،(أو كما يقال اضطرام النيران في الزيت) ، فكانت من العوامل الهامة في ظهور هذه النهضة التي شغلت السنوات الأخيرة من عهد إسماعيل وكانت من أعظم أدوار الحركة القومية. كان من مظاهر هذه النهضة نشاط الصحف السياسية ، وإقبال الناس عليها ، وتحدثهم في شؤون البلاد العامة ، وتبرمهم بحالتها السياسية والمالية ، ثم ظهور روح المعارضة واليقظة في مجلس الشورى ، على يد نواب نفخ فيهم جمال الدين من روحه ، وعلى رأسهم عبد السلام بك المويلحي (باشا) ، الذي يعد من تلاميذه الأفذاذ ، وإنك لتلمس الصلة الروحية بينهما ، من الكلمات والعبارات الرائعة التي كان المويلحي يجهر بها في جلسات مجلس شورى النواب .

لم يكن جمال الدين الأفغاني مناصراً لإسماعيل ، وكان يتوسم الخير في توفيق ابنه ، إذ رآه وهو ولي للعهد ميالاً إلي الشورى ، ينتقد سياسة أبيه وإسرافه ، وقد اجتمعا في محفل الماسونية (المحافل الماسونية من إنشاء الصهيونية العالمية) ، وتعاهدا على إقامة دعائم الشورى في مصر .

ولكن توفيق لم يف بعهده – الذي اقتطعه على نفسه للشيخ - بعد أن تولى الحكم ، فقد استمع لوشايات رسل الاستعمار الأوربي ، وفي مقدمتهم قنصل إنجلترا العام في مصر ، إذ كانوا ينقمون من السيد روح الثورة والدعوة إلي الحرية والدستور ، فغيروا عليه قلب الخديوي ، وأوعزوا إليه بإخراجه من القطر المصري ، فرفع له الكارت الأحمر مرة ثالثة ، و أصدر أمره بنفيه .

وكان نفيه – في هذه المرة ، و هي الأخيرة - غاية في القسوة والغدر ، إذ قبض وهو ذاهب إلي بيته هو وخادمه الأمين (أبو تراب) ، وحجز في الضبطية (التخشيبة) ، ولم يتمكن حتى من أخذ ثيابه ، وحمل في الصباح في عربة مقفلة إلي محطة السكة الحديدية ، ومنها نقل تحت المراقبة الشديدة إلي السويس

(و كأنه مجرم خطير)، وانزل منها إلي باخرة أقلته إلي الهند ، وسارت به إلي بومباي .

أخفقت الثورة العرابية ، واحتل الإنجليز مصر ، فسمحوا للسيد بالذهاب إلي أي بلد يرغب في الذهاب إليه ، فاختار الشخوص إلي أوربا ، ففي أوربا كما يزعمون الحرية و الديمقراطية - فقصدها سنة 1883 ، وأول مدينة وردها مدينة لندن (عدوه اللدود)، وأقام بها أياماً معدودات ، ثم انتقل إلي باريس ، وكان تلميذه الأكبر الشيخ الإمام محمد عبده منفياً في بيروت عقب إخماد الثورة العرابية ، فاستدعاه إلي باريس ، فوافاه إليها ، وهناك أصدرا جريدة (العروة الوثقى) ، وقد سميت باسم الجمعية التي أنشأتها ، وهي جمعية تألفت لدعوة الأمم الإسلامية إلي الاتحاد والتضامن والأخذ بأسباب الحياة والنهضة ، ومجاهدة الاستعمار ، وتحرير مصر والسودان من الاحتلال ، وكانت تضم جماعة من أقطاب العالم الإسلامي وكبرائه وهي التي عهدت إلي السيد بإصدار الجريدة لتكون لسان حالها.

وقد ذاع شأنها في العالم الإسلامي أجمع ، وأقبل عليها الناس في مختلف الأقطار ينهلون من ريقها العذب ، ولكن الحكومة الإنجليزية أقفلت دونها أبواب مصر والهند ، وشددت في مطاردتها واضطهاد من يقرؤها ، وبلغ بها السعي في مصادرتها أن أوعزت إلي الحكومة المصرية بتغريم كل من توجد عنده العروة الوثقى خمسة جنيهات مصرية إلي خمسة وعشرين جنيهاً مصريا (ثروة في هذا الزمان) و يضاف إلى ذلك الحبس ، وأقامت الموانع دون استمرارها ، فلم يتجاوز ما نشر منها ثمانية عشر عدداً .

قضى جمال الدين في باريس ثلاث سنوات ، كان لا يفتأ خلالها بنشر المباحث والمقالات الهامة في مقاومة اعتداء الدول الأوربية على الأمم الإسلامية ، ويراسل تلاميذه ومريديه في مصر ، البلد الوحيد الذي شعر فيه بالأمن و الأمان و الاستقرار .

و انتقل معك إلى بحث طريف للكاتب السوري موفق بني مرجة في رسالته للماجستير " صحوة الرجل المريض أو السلطان عبد الحميد الثاني " و مصطلح الرجل المريض كانت يطلق على الدولة العثمانية التي كانت تحكم الوطن العربي بالاسم فقط في تلك الأيام ، أما الحكام الفعليين فهم الاستعمار الإنجليزي أو الفرنسي أو الإيطالي ، وكل له نصيب من الكعكة العربية .

و من أسباب هذا الانتقال إنني أقحمت في الكلام المنقول عن ابن أخيه ، بعض الكلمات أحببت أن أوضحها من خلال عرض هذا الكاتب .

جمع الكاتب السوري رسائل كتبها الأفغاني بنفسه، تثبت علاقته بالمجمع الماسوني "كوكب الشرق" (لا أقصد بهذا أم كلثوم قيثارة الغناء العربي ، و إنما أقصد المجمعات الصهيونية) وعلاقته ببريطانيا من خلال مراسلاته مع زوجة رئيس الوزراء البريطاني حينها آندي بلير وتوقيع رسائله بعبارة "صديقكم المخلص".

وقد أثبت المؤلف بما لا يدع مجالا للشك انتماء الأفغاني للماسونية ، ودعوته إلى وحدة الأديان. ونقل على ذلك مقتطفات من كتاباته. كما أشار إلى استعماله بعض المصطلحات الجديدة المبتدعة التي يستعملها الماسونيون ، كمصطلح الموسوية بدلا عن قول اليهود، و"العيسوية" بدل النصارى و"المحمدية" بدل المسلمين .

كما أثبت المؤلف أن الأفغاني، والذي كان له ألقاب عديدة يستخدمها كالحسيني والكابلي و الأفغاني وغيرها ، فكل بلد زارها كان له لقب ؛ مما يزيد الغموض حول شخصيته. وكان في أواخر أيامه يلبس اللباس الإفرنجي ويدخن السيجار الأوربي ، ويجتمع بمريديه في بار يملكه يهودي في القاهرة ، وقد وضع له صورة باللباس الإفرنجي .

كما اتهمه السلطان عبد الحميد الثاني في مذكراته بالعمالة للانكليز، وقام بسجنه تبعاً لذلك. واتهمه د. عبد الله عزام في كتابه "القومية العربية " بأنه شيعي اثني عشري وأنه إيراني عميل للشاه..

و أظن إننا و أمام هذا الحشد الهائل من المعلومات التي قد تغير وجهة نظرنا في التاريخ الذي ندرسه ، و لكن سيظل جمال الدين الأفغاني رائدا من رواد التحرير ، و ستظل تلك الكلمات السابقة التي قالها في حق المصرين تحتاج إلى نظرة ثاقبة في رأي الناس فينا .

متى يعود عمر ؟

رغم قسوة القلب التي كان يتمتع بها عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – قبل الإسلام (في الجاهلية) ؛ إلا أنه و بعد إسلامه انقلب الحال معه إلى النقيض . و النقيض أو التضاد أو التناقض هي السمة الغالبة علي حياتنا ، و التي نعتز بوجودها في حياتنا ، فهي المحك الذي يحمي وجوهنا .

في الجاهلية وأد ابنته كما كانت تفعل بعض قبائل العرب ، وضرب أخته ضربة موجعة ، أسألت من وجهها الدم ، حين علم بإسلامها .

و ما إن أسلم حتى بدأت خشونته في الذوبان ، لقد ملأ النور قلبه ، لقد هداه الله إلى رحمته ، و في نهاية الأمر تلاشت تلك القسوة إلا في بعض المواقف ، مواقف الحق ، حتى أن خليفة رسول الله أبا بكر الصديق – رضي الله عنه - قال له أثناء حروب الردة : " أ جبار في الجاهلية ، خوار في الإسلام ؟ "

مواقف كثيرة اتخذها عمر حين أصبح خليفة تدل على عظمة إسلامه .. ها هو يسير في الطرقات في أعماق الليل ؛ فيسمع صوت أطفال يبكون ، و يسأل ربة المنزل (أمهم) عن السبب ، فيعلم أن البيت خال الوفاض ، ليس به كسرة خبز تسد جوعهم ، و أن المرأة قد احتالت عليهم ، فهي تغلي الماء حتى يخلد أولادها إلى النوم .. فيسرع الخليفة بنفسه إلى بيت المال ، ويحمل الطحين على ظهره ، و يقدمه للمرأة حتى تطعم أولادها . (هذا الكلام كان زمان .. و في صدر الإسلام) .

و موقف آخر يدل على حبه للأمن و الأمان حين يقول : " و الله لو ضاعت شاة في العراق لسئلت عنها يوم القيامة " و من الغريب أنه كان يسكن في المدينة ، ويتحدث عن العراق ، وما

أبعد المسافة بينهما الآن (فما بالك أيام زمان حين كانت طريقة المواصلات السريعة هي الجمال أو الأحصنة). في كل شيء ، فالعراق سبب كل المشاكل التي يعاني منها العرب ، منذ أيام الخليفة عثمان بن عفان ، و علي بن أبي طالب ، وخصوصا بعد غزوه للكويت .

لقد نظم عمر الخليفة أمور الدولة تنظيما دقيقا يحسب له ، فاستخدم البريد ، و سهل أمره ، وما أدراك ما البريد في ذلك العصر ، حيث يسير حامله على حصانه ، أيام و ليال ، فجعل في الطريق محطات للراحة ، وتبديل الجياد . ولابد لهذا الطريق من الأمن و الآمان ، فنظم إدارة العسس (الشرطة) لحماية الطريق .

بل أن الخليفة عمر بن الخطاب أمير المؤمنين كان يحاسب الولاة – حسابا عسيرا - في الأمصار (الأقاليم – المحافظات) و ليس على الولاة فقط بل ما يحدثه أبناؤهم . و أقرب مثال على ذلك محاسبة والي مصر عمر بن العاص – رضي الله عنه – و عزله، لأن ابنه استغل نفوذ أبيه استغلالا سيئا . . رغم أن عمرو بن العاص كان من أنزه الحكام العرب الذين حكموا مصر بعد فتحها .. فقد نشر مبدأ التسامح الديني .. فهو يعرف جيدا أن الأديان السماوية كلها من معين واحد .. و أن الأنبياء أخوة لا تفاضل بينهم .. و أن العقيدة لا يمكن الإكراه عليها .. و أن أماكن العبادة لها احترامها ، ويجب الدفاع عنها .. و أن الناس لا ينبغي أن يؤدي اختلافهم في أديانهم إلى أن يقتل بعضهم بعضًا، أو يعتدي بعضهم على بعض، بل يجب أن يتعاونوا على فعل الخير ومكافحة الشر .. هكذا تعلم من الإسلام .

و مواقف عمر كثيرة لا تعد و لا تحصى في تطبيق الشريعة حتى على أقرب المقربين إليه .

و كان يقابل السفراء تحت الشجرة بعباءة بالية رثة ، والأغرب دون أن يكون هناك برتوكول ، أو حرس خاص

أو حرس خفي .. فقد جاءه رسول كسرى ، و سأل عن خليفة المؤمنين ، فأشاروا إليه ، أنه تحت الشجرة نائما .. و كان رسول كسرى يظن ، أنه يسكن قصرا ، و أن الحراسة حوله مشددة ، و أنه يلبس أغلى الملابس .. كما تعود في بلاده .. حينما يرى كسرى (حاكم بلاد الفرس ، إيران الآن) مليكه يتمتع بأبهة الملك .. و أدرك الرجل أن الإسلام لا يفرق بين حاكم و محكوم .

و حينما كان عمر يعاني سكرات الموت .. لم يكن الموت يخيفه ، فقد طالب بالرأفة لقاتله ، وقد ابتدع مبدأ الشورى في خلافة المسلمين .

أظن أنك تريد أن تقرأ عن عمر بن الخطاب .. أول من نودي باسم أمير المؤمنين .. و كتب السيرة تحفل بهذا الكم الهائل عن سيرة عمر بن الخطاب .. و تستطيع أن تقرأ كتاب عباس محمود العقاد عن عبقرية عمر .. أو غيره من الكتب .. و قد كتب الشاعر العظيم حافظ إبراهيم عنه ديوان شعر بسيط سماه " العمريات " .. عدد فيه الصفات التي تحلى بها الخليفة العادل .

و السؤال المحير الذي قد لا توجد له إجابة ، ولن توجد : هل يعود شبيه لعمر ، ليقيم العدل في حكم المسلمين ؟

و أنا أؤمن إيمانا عميقا أن شخصية كعمر لن تعود ، وخصوصا بعد أن أنقسم العالم الإسلامي و العربي إلى ولايات (حاليا دول) و أن كل سلطان أو ملك أو أمير أو رئيس لا يهمهم إلا بناء القصور ، و الحراسة المشددة أو أن يكون من أشيك الرجال في العالم .. أو ..

و أظن كل منهم لا يهمه إلا معالجة نفسه في أرقى الدول التي تهتم بالطب .. و علاج الشعب في مستوصف يعج بالمرضى .. و حتى من يحتاج إلى علاج في الخارج ، يحتاج إلى العديد من التوقيعات و الإجراءات الروتينية ، و من الممكن أن يكمل العلاج على حسابه إذا كانت المنحة المعطاة له لا تكفي

لعلاجه .. وغالبا ما يكون هؤلاء من طبقة معينة .. أما الغلابة الذين يشكلون الأغلبية ، فإنهم يحاولون العلاج في بلادهم .. و من ييأس منهم يترك نفسه للموت .. ولقد سمعتها من طبيب حين جاءه مريض بالقلب ، فأشار عليه الدكتور أن يجري العملية على الفور ، وقال له أن العملية ستتكلف ما يقرب من (عشرات الآلاف من الجنيهات) .. و هنا أصيب الرجل بالذهول .. و ترك الطبيب ، الذي عرف أنه لا يستطيع أن يدبر عشر هذا المبلغ .

رحم الله عمر ، ورحم الله أيام عمر .. و رحم الله حافظ إبراهيم حينما قال عنه :

آمنت لما أقمت العدل بينهمو

و نمت نوم قرير العين هانيها

مناحيم بيجن و الأهرامات

في حفل التوقيع النهائي لاتفاقية كامب ديفيد .. قال رئيس الوزراء الإسرائيلي مناحيم بيجن عبارة ضحك لها الرئيس المصري أنور السادات ، والرئيس الأمريكي جيمي كارتر .. و كانت العبارة تقول : " نحن الذين بنينا الأهرام " .

و قبل أن نخوض في صحة هذا القول ، ينبغي لنا أن نجد عبارات أخرى قالها هذا المناحيم ، ثم نعرج على تاريخه .

و للرجل عبارات أخرى تبين أنه محب للسلام : "لا مزيد من الحروب، لا مزيد من إراقة الدماء، لا مزيد من التهديدات " .. و الرجل أيضا عدو السلام لا ينسى الأحلام الصهيونية يقول : " إذا كان حزب الليكود يعد الإسرائيليين بإسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات، فأنا أعدهم بإسرائيل العظمى من الخليج إلى المحيط " .. و يقول على الفلسطينيين : "الفلسطينيون وحوش تمشي على قدمين" . و أقوال الرجل لا تنتهي .. و خصوصا أنه منح جائزة نوبل للسلام لتوقيعه معاهدة السلام مع مصر.

و حياة مناحيم بيجن حافلة بالكفاح ، الكفاح على الطريقة الصهيونية المعتادة .

ولد في روسيا البيضاء وتعلم بها حتى المرحلة الثانوية ، ثم هاجر إلى بولندا ليكمل دراسته في جامعة " وارسو " .. وفي بولندا التحق بمنظمة "بيتار" اليهودية البولندية التي ترأسها في عام 1939.. و لكنه نتيجة للغزو الألماني على بولندا اضطر إلى العودة إلى روسيا نجاة بنفسه .. من الألمان الذين كانوا يكرهون اليهود في ذلك الوقت .. لأسبابهم .. و أخذه الروس بالأحضان ، فقد عاد الهارب إلى أرضه ، و ألقوا به في صحراء سيبريا ، ثم عاد بعد عام إلى بولندا ، ثم قرر الرحيل عن أوربا نهائيا إلى

أرض الميعاد ، أو أرض الأحلام .. فهاجر إلى فلسطين سنة 1942 .

أسس مناحيم بيجن في فلسطين المحتلة منظمة أرجون الصهيونية المتعصبة ، و كانت أحد أعماله البطولية مذبحة دير ياسين (يريد بذلك أن ينتقم من المذبحة المزعومة التي ينسبونها إلى هتلر .. الهولكست) أو على الإجمال ما حدث لهم في كل مكان عاشوا فيه) .. ونسف مقر القيادة البريطانية في فندق الملك داود . (رغم أن بريطانيا هي التي وقفت بجانبهم لتحقيق حلمهم .. و أظن أنه لولا الوعد المشهور لبلفور لظل الحلم اليهودي في سباته إلى الآن .

يقول عنه بن جوريون أحد القادة البارزين في المجتمع اليهودي ورئيس وزراء أيضا : " إن بيجن ينتمي دون شك إلى النمط الهتلري ، فهو عنصري على استعداد لإبادة كل العرب لتحقيق حلمه بتوحيد إسرائيل، وهو مستعد لإنجاز هذا الهدف المقدس بكل الوسائل " .

و نحن نقدر هذا الرأي .. فهذه الصراحة ، تدل على أن أرباب الدولة اليهودية يعرفون بعضهم البعض ، و كل يريد أن يرسم صورة للآخر ليبين أنه الوحيد المحب للسلام .

وبعد أن قامت دولة إسرائيل ، وتم حل المنظمات الإرهابية .. تحول إلى العمل السياسي حتى أصبح رئيس وزراء إسرائيل .

و لنعد إلى البداية مرة أخرى ، ونقف أمام العبارة الشهيرة ببناء الأهرامات .. و من الاحتمالات المرجحة أنه أراد أن ينبه المصريين ، أن اليهود كانوا يعيشون في مصر .. وأنه لذلك سوف يطالب بحق اليهود في الحلم الضيق .. و هو أن إسرائيل تمتد من النيل إلى الفرات .. أو الحلم الواسع .. وهو أن إسرائيل حسب قوله هو ستمتد من الخليج إلى المحيط .. أي أن حلمه هو محو العرب .

لا يهم كل ذلك فقد سمعنا الكثير عن هذا الحلم ، وسوف نسمع عنه أيضا الكثير ..

العرب قاطعوا مصر بسبب هذه الاتفاقية المقدسة ، مقاطعة صورية في الظاهر .. أو قل سياسية بالشكل فقط .. فأكثر من مليونين يعيشون في ذلك الوقت في الدول العربية ، يعملون بجد و إخلاص في نهضة تلك الشعوب .. يعيشون بين إخوانهم ، يتمتعون بالحياة الاقتصادية المرفهة، أكثر مما يعيشونها في بلدهم .

و لنعد مرة أخرى إلى أصل الحكاية .. فاليهود جاءوا مصر بناء على دعوة سيدنا يوسف عليه السلام لإخوانه .. أبناء يعقوب بن إسحاق عليهما السلام ، وسكنوا في مصر كوطن ثان لهم.. و لكنهم بعد مضي وقت من الزمن . نسى الأبناء أو الأحفاد أنفسهم (كالعادة اليهودية) ، وبدأوا في تكوين أحياء لهم في مصر ، فاضطر فرعون نتيجة لإفسادهم الحياة الاقتصادية في مصر إلى طردهم في عهد النبي موسى عليه السلام .. و لم تمض فترة إلا وقد عادوا ، كما كانوا ، فاضطر الفراعنة إلى تشغيلهم في أحط الأعمال .. و من ثم كانوا كالعبيد يفعلون ما يأمر به الفرعون عبيده من أعمال .

تاريخيا قول مناحيم بيجن فيه مغالطة ، وكذب بين .. فالأهرام بنيت في عصر الأسرة الرابعة أي في حوالي سنة 2650 ق .م تقريبا .. و أن مجيء سيدنا يوسف كان في سنة 1345 ق . م تقريبا .. أي أن هناك فترة زمنية بين التاريخين 1305 سنة تقريبا .

ثلاثة عشر قرنا من الزمان اختفت من ذاكرة اليهود ،أو من تاريخ اليهود ، و تبخرت من أكبر رأس إلى أصغر رأس .

خان الكذب مناحيم بيجن ، و نظن أنه ضعيف في مادة التاريخ .. وأظن أن المادة المفضلة لديه هي مادة الإرهاب .

صحيفة معاريف الإسرائيلية و في مقال كتبته الكاتبة المبجلة جدا أنجيل غريسي دعت : " كل يهودي إلى أن يسأل نفسه : ماذا يفعل ليثبت حقه التاريخي ؟ (في ماذا ؟) مجيبة في الوقت نفسه : « إننا نحن بناة الأهرامات ..

و انتهى بعض الباحثين الإسرائيليين إلى أن المصريين ليسوا الفراعنة .. (هكذا) و من عبارة أو جملة واحدة قالها الزعيم مناحيم بيجن . فسر الإسرائيليون ، و بخوا سمهم في أنحاء العالم أجمع عن الحق اليهودي في مصر .

و نفس القول نستطيع أن نقوله عن اليهود .. فهؤلاء اليهود اليوم ، ليسوا يهود بني إسرائيل .. بل هم أخلاط مهجنة أفرزها التاريخ من اختلاطهم بالشعوب الأخرى ، حتى أنهم يقسمون أنفسهم إلى قسمين .. ليميزوا بين اليهود الأوربيين (الصفوة الحاكمة في إسرائيل سياسيا و عسكريا) و اليهود الشرقيين . و يعتبر مناحيم بيجن من اليهود الغربيون الاشكنازيم ، و هم أعلى مقاما من اليهود الشرقيون السفارديم .

و بدأت الردود من العديد من علماء مصر ، فالدكتور الاثري زاهي حواس ينفي هذه المزاعم بشدة ، ويفند هذه الآراء بالدليل ..

و يذهب الدكتور محمد أبو غدير، خبير الإسرائيليات ورئيس قسم الدراسات العبرية الأسبق في كلية اللغات والترجمة - جامعة الأزهر، إن .. « ادعاءات الإسرائيليين المتكررة حول الحضارة الفرعونية القديمة لاسيما أنهم بناة الأهرامات غير صحيحة والقضية محسومة، لأن العصر الذي بنيت فيه الأهرامات كان قبل الوجود اليهودي في مصر، لكن أهم ما يميز اليهود حتى داخل إسرائيل هو الاختلاف الشديد فيما بينهم، فكل منهم يكتب ما يشاء "

و من العجب أن يقتصر هذا القول على الخبراء و الباحثين .. و لا يعرف الناس عنه شيئا .. لماذا ؟ أجب أنت . إذا كنت تملك الإجابة عن ذلك السؤال .

وأظن أن تلك العبارات التي يذهب بها الساسة الصهاينة تستمر ، و بأشكال عديدة ، حتى يكون وجودهم في الشرق وجودا مدعما بالأدلة حتى و لو كانت تلك الأدلة زائفة ، تعتمد على الحدث ، ثم ما بقى يكون فبركة ، ليؤكد صحة المزاعم التي يقولونها .

و من العجب العجاب أننا ندافع عن حقوقنا من خلال وسائل الإعلام العادية .. الصحف و المجلات المحلية ، تلفاز الدولة ، و نبين وجهة نظرنا بسرعة واستعجال ، ثم نتناسى أو ننسى إكمال المشوار .. و هم ينشرون أخبارهم و يسقونها إلى دول العالم أجمع .. و كأن حقوقنا في الرد تكون لنا فقط ، و أن العالم المدافع عن الحقوق الإسرائيلية ليس لنا دخل به .

تقول الحكمة القديمة : «من ليس له ماضٍ يفخر به ، فلا حاضر ولا مستقبل له" .

الشخصية المصرية

هل صحيح أن الشخصية المصرية تحمل الكثير من التناقضات ، متناقضات لا توجد في أي شخصية أخرى في العالم ، الذكاء الفطري والطيبة الشديدة و الكرم الزائد عن الحد ، و الصبر و تحمل الشدائد .. الفرح و الحزن ، عدم الرضا عن الظلم ، و الإصرار ، و الرضا بما قسم الله لنا .

و هذه الشخصية المصرية كما تخبرنا الأغاني الوطنية من خلال المطربين العظام أمثال سيد درويش فنان الشعب ، و عبد الحليم حافظ العندليب الأسمر ، و أم كلثوم كوكب الشرق ، و فايدة كامل الأم الثكلى ، و شادية الدلوعة ، و غيرهم الكثير من مطربي الزمن الرصين ، و الأغاني الجديدة التي نسمعها من مطربين مصريين أو غير مصريين يحبون الإنسان المصري و قل مصر كلها .

و الإنسان المصري محاصر كل الحصار في وسائل إعلامه المختلفة ، فنسمع .. أنا المصري .. و كل مصري الله عليه .. و ملوك الجدعنة .. الخ ..

و تقودنا أغنية " قوم يا مصري مصر دايماً بتناديك " إلى أن المصري يحب وطنه ، ويدافع عنه في أوقات الشدة ، و أن المصري يفتخر بهذه المصرية ، و ليس هناك عبارة أجمل و أقوى من قول مصطفى كامل " لو لم أكن مصريا لوددت أن أكون مصرياً " .

فالمصري يفتخر بهذا التناقض العجيب الذي مر به على فترات التاريخ الفرعوني و القبطي والإسلامي و العربي ، و العثماني و المملوكي و الاستعماري الإنجليزي ، كل ذلك انصهر في بوتقة واحدة ليكون الشخصية المصرية الفريدة .

تجمع الماضي و الحاضر في هذه الشخصية .. يصبر كل الصبر في بيته .. في عمله ، ثم ينتفض على الأوضاع التي لا تعجبه في بيته و في عمله ، وهو في صبره يضرب الأمثال و الحكم على نفسه ، و على من يتولى أمره . ينقد نفسه أولا ، ثم ينقد غيره ، ليس خوفا من المواجهة ، و لكن حبا في السلامة .

النفسية المصرية قد تغيرت، ربما ليست الصورة قاتمة وربما إنها إحدى إفرازات عصر العولمة في العالم ككل، لكن ولأن مصر والمصريين لهم سمات تسهل قراءتها فمن ثم تكون عملية التعرف على خطوطها المتعرجة وعلاماتها الإيجابية والسلبية سهلة.

صفات جديدة و كثيرة اكتسبها بعض أفراد الشعب المصري في أيامنا الحاضرة ، وهي الكذب و الغش و الخيانة و الرشوة ، وعدد ما شئت من هذه الصفات المذمومة التي يرفضها الذوق السليم و مبادئ الأخلاق العربية و الإسلامية .

و يكاد يجمع كل الناس على إطلاق لفظ الفساد على هذه الصفات التي تجري في المجتمع في هذا العصر .

و الأمثلة كثيرة لا تعد و لا تحصى ، و لكن العجيب في الأمر أنها تنحصر في فئات معينة في المجتمع .

أدراج المكتب المفتوحة التي تسهل سرعة إنجاز المعاملات ، ضع أنت ما تقدر عليه ، و على هذا القدر يتم إنجاز المعاملة .

هل اختفت الصفات القديمة التي كان المصري يدافع عنها بكل ما يملك ؟ و لماذا ؟

التعميم في هذا الموقف يقودنا إلى طريق يكاد يكون مسدودا .. البعض يقول أن تكاليف الحياة الاقتصادية في بلدنا تدفع البعض إلى التحلي بهذه الصفات الجديدة التي اكتسبها (تبرير كالعادة).. و البعض يرفض هذا الوضع و يحتكم إلى

أمثالنا الشعبية " إذا كان رب البيت بالدف ضاربا ، فشيمة أهل البيت ..

الإنسان المصري بدأ - أو علَّه فعلاً - فَقَد تلك البساطة التلقائية، أو علَّه بالفعل ، فقد منظومتها الداخلية الدقيقة فترك نفسه نهباً لما يحدث حوله، يستسلم له، ينهش فيه ؛ فيضحك إما سخرية من الآخرين، أو من نفسه، وقد يضحك في أسى أسود، وقد ينبسط ويضحك عالياً لكن لفترات محدودة، في محاولة للشفاء من أمراض المجتمع وتوحش العلاقات الإنسانية حوله، وكذلك التشبث الشديد بالماضي أو الحلم الغريب بالمستقبل المزدهر الذي - يمكن - أن تستمر فيه البساطة أطول، وتكون فيه الانطوائية مجرد انعطافة.

المصري عاطفي بطبعه ، رومانسي في آماله وأحلامه ، رومانسي جداً في حبه لمصر (وكأن مصر هي الكون كله)، ورغم المنغصات يتمسك، أو يحاول التمسك بهذه الرومانسية، لكنه تدريجياً يفقد الثقة في أحلامه وفي عاطفته، فنجده يصفع أصدقاءه، و أهله ، وزوجته ، يُهزم ، ويحزن ، وتدريجياً لسلب عاطفته حتى يصبح خشناً وفظاً، يائساً وفاقداً للحلم ، لأن الحلم قد أصبح صعب التحقيق .

المصري صبور وكأنه الجَمَل، يحب اجترار أحزانه وأفراحه ، يحزن، وينفجر فجأة، يتحمل حتى لو كان رقيقاً، يخاف المستقبل ويخشاه ويعمل له ألف حساب، يتألم بشدة ويخشى الزمن وتقلباته، في داخله إحساس دفين بعدم الأمن والأمان، ولا يثق في الآخرين بسهولة على الرغم من أنه قد يصادق الجميع ، رغبة في التصديق، أو رغبة في الهروب. و ينحشر في أي حديث سواء أكان يعرفه أو لا يعرفه .

المصري طموح، يسعى ويجتهد ويبتكر وينفعل في كثير من الأحيان ، لكنه - أحياناً - ما يصاب بالبلادة نتيجة الإحباط المستمر والفشل المتكرر، رغبته في تحقيق ذاته عالية، وإذا ما

اصطدمت بالظروف والعقبات تألم ونعى نفسه وقعد في ركن ينزوي ويمضغ أحزانه ، وكأن نهاية العالم قد حلت .

المصري يتفاعل مع البيئة المحيطة ويشارك فيها، يغني مع المغني، يرقص مع الراقص، يضحك مع المُضحك . ويبكي مع البكائين .. مجاملة أحيانا ، و تفريج عن همومه أحيانا أخرى . و ينفث دخان سيجاره في الهواء الطلق، أو شيشته ، كأنها تنفث عن الفراغ الذي يحيط به في خياله . و يقول لنفسه : " من يشوف بلاوي الناس هانت عليه بلوته " .

و نحن نرى أمراضا عصرية تنتشر انتشارا سريعا في جسد المجتمع تنهش في هذا الجسد الذي يعاني من آفات عديدة ، تظهر وتختفي ، و هاك بعض هذه الأمراض :

أول هذه الأمراض السرعة و البطيء :

عالم سرعة مخيفة ، يلتم الشمل في كل وقت.. زواجا أو أصدقاء .. وينفرط بسرعة، أصبح الإنسان يلتهم طعامه بسرعة ، يشرب مشروبه وماءه بسرعة، يجري بسرعة لعله يلحق، يقود سيارته ودراجته بسرعة غير مباليا بما يحدث له أو للآخرين، ييأس بسرعة، يملَّ بسرعة، يفقد صبره بسرعة، يتألم بسرعة، ينزعج بسرعة، يفرح بسرعة وتنطفئ الفرحة لديه بسرعة ، يريد أن يصبح غير نفسه بسرعة، يريد أن يكون إنسانا آخر أيضا و بسرعة ، يريد أن يودع الفقر ، أن يكون غنيا بسرعة . و يقابل ذلك البطيء في أداء عمله .. و تسمع أحيانا بعض العبارات المملة .. فوت علينا بكرة ، أو بعد أسبوع ، أو بعد شهر .. هكذا .. و كأنه يريد أن يتخلص منك بسرعة . بل وهو يتخلص منك يتمسك بالروتين الذي مضى عليه قرون دون تبديل .. حتى أصبح الموظف – وهو شاب – يقال عنه عبد الروتين .

و أحيانا ينجز لك العمل بسرعة الصخور ، وبلا روتين .. ولسان الحال يقول .. إذا برز اللحوح فكل شيء يروح .

ثم هناك سرعة أخرى قد قلبت الموازين ، و جعلت الإنسان المصري نهبا للشك و الحيرة .. صحف متعددة تنقل الحدث ، كل حسب رؤيته .. من الصادق من الكذاب .. لا يهم .. قنوات فضائية تنقل الخبر ، بالإضافة إلى تعليق من ناحية ، وخبراء كثر لتحليل الحدث من ناحية أخرى .. و آراء متداولة في الأتوبيس أو العمل من ناحية ثالثة .. من الصادق من الكذاب .. لا يهم .. و الأخطر من ذلك كله الشبكة العنكبوتية (الانترنت) يتناقل المعلومات حتى أصبح كالصحافة أو القنوات الفضائية ، و إضافة تعليقات على تلك الآراء المتعددة .. و النتيجة تراكم هذه المعلومات في عقلية المتابع ، و النتيجة رأي آخر سريع يطوف في سمات الشخصية .

و ثاني الأمراض التي نعاني منها الاستخدام اللفظي :

قبح لفظي، عنف حواري، كلمات صدئة و مفردات مفزعة تنبع من قلب البيئة التي تلوث هواءها كما تلوث وجدانها. تسمع ما لم تسمعه ... ما إن يبدأ اثنان (رجال أو نساء أو أطفال) في الحوار حتى يعلو صوتهما علوا يسمعه كل من حولهما ، فإذا اختلفا في الرأي (و دائما ما يختلفا) فليس هناك إلا الصياح و السباب بكل بذاءة ، و قد يمتد الأمر فيكون التشابك بالأيدي ، و قد يصل إلى التقاتل بالسلاح .. ترى الطفل و مازال سنه الغض يتلفظ بألفاظ سيئة لا تتناسب مع سنه ..

شخصية المصري تغيرت وفقاً واستجابة لتغيرات بيئته المحيطة، تلك البيئة التي تشكل في مجملها ذلك الجوّ المحيط الذي يترعرع فيه الطفل وينشأ : البيت، الأسرة، الجيران، الحي، الأقارب، المدرسة، الشارع، المجتمع ...

يكبر محيط تلك البيئة مع الإنسان في نموه وتطوره من الطفولة إلى المراهقة، ومنها إلى الشباب والكهولة. يتأثر فيما يتأثر به بعفة الألفاظ ونظافة اللسان

ناهيك عما يدور من حوارات يكون فيها الشتم نوعاً من الاستمتاع دون اعتبار لصفته النابية، يمتزج بالضحك والمزاح على المقاهي وكذلك في النوادي، على نواصي الشوارع.

و قد يكون الشتم وسيلة لإثبات الذات و القدرة و القوة .. و كأنه يريد أن يردد قول كانط : " أنا أفكر فأنا موجود " .. و لكن على الطريقة المصرية : " أنا أشتم فأنا موجود " .

و دخلت الفضائيات ذلك السباق ، فترى في برنامج اثنان يتحدثان ، كل منهما يريد أن يظهر وجهة نظرة ، وفي الغالب لا يريد هذا الشخص أن يتحدث الضيف الآخر ، هذا يقاطع ذاك ، و يستخدم من الألفاظ ما يحلو له .. قد تكون سليمة و قد لا تكون ، و بدلا من أن يكون المذيع محايدا ، نراه يحاول جاهدا أن يكهرب الجو في الأستوديو ، و على الهواء . أو يقاطع المتحدث إذا كان كلامه لا يعجبه .. أو انحرف عما هو مرسوم لهذا الحوار من اتجاه .

من خلال كل ذلك قد نري الولد الصغير يقلد و يحاكي أباه أو .. بالتلفظ بالأسوأ ليثبت أنه رجل، نجده يشب متعلماً اللغة حديثاً وطوله لم يتعد الشبرين، طويل اللسان، بذيء يؤذي من حوله، وهم بدورهم يؤنبونه ويعنفونه، غير مدركين أنهم قد شكلوا نواة وعيه وخلقوا له بيئة ملوثة اللفظ والحركة والمعنى لينشأ كما يروه وأنه ابنهم وليس لغيرهم، وقد أصبح ملحاحاً عنيداً ومخجلاً.

أما المرض الثالث فهو الاغتراب اللغوي و خلق مفردات جديدة في المجتمع :

في السنوات الأخيرة، حدث نوع من الإغتراب اللغوي لصالح اللغات الأجنبية خاصة الإنجليزية الأمريكية (صحيح أن أصل اللغة واحد ، ولكن هناك فرق) ، وظهر ذلك بينًا على المحلات وفي إعلانات الكباري والشوارع والميادين وكذلك صفحات الصحف. و من الغريب أن ذلك يمتد ليشمل أسماء بعض الشوارع .

كما حدث خلق مفردات جديدة غريبة ، الصوت العالي، العراك، الشجار، الازدحام المروري، الشك في الآخر والارتياب في مقاصده، أدّى إلى ظهورها، بل إلى تزايد حدوثها، الازدحام، الاحتكاك، الاكتظاظ، الاعتداء على مساحات الآخرين ، المحافظة على المساحات التي أمامه في الشارع حتى ولو كانت لا تخصه ، و قائمة الممنوعات كبيرة ، و قائمة تحدي هذه الممنوعات أكبر و أشد إيلاما .

أما المرض الرابع الذي تلمحه في المجتمع هو التعصب الأعمى بأشكاله المختلفة :

في مباراة ترى الشحن المعنوي الذي يؤدي إلى هياج الجماهير المتعصبة .. و تسمع ألفاظا غريبة بذيئة – و كأن يوم الحشر قد حان - تصب على نفسية اللاعب أو المدرب أو الحكم .. و ترى بعض المناوشات .. قذف الحصوات على سيارة اللاعبين .. أو في الملعب ..

هذا الشحن قد يكون سببه الحرب الكلامية قبل المباراة على صفحات الصحف ، و في التلفاز غالبا ..

و نرى أيضا نوعا من التعصب الخطير ألا وهو التعصب الديني .. ليس فقط بين المسلمين و المسيحيين ، بل هو أيضا بين أبناء الطائفة نفسها .. ويصل الأمر إلى ذروته باستخدام الإشاعات أو السلاح .

اضطراب الشخصية نتيجة ضغوط الحياة المادية، النفسية، الحسية، الإنسانية، والعيش وسط كل التناقضات التي يمكن تخيلها من إباحية شديدة إلى التعصب الديني الأقوى إلى حالة التربص والإستنفار والتحفز لكل ما هو آت ، مما فد يحدث أعراضًا قد تكون في منتهى الإثارة وأيضًا في منتهى الإحباط، لمن يتعامل معها سواء كان في البيت أو العمل، الشارع، أو حتى في إطار العلاج مما يخلق حالة مشحونة بالارتباك والترقب والانتظار.

و من الأمراض التي نعاني منها السلبية

حوادث .. وكوارث .. إنهيار العمارات ـ العنف الطائفي ـ الموت غرقاً في العبارة السلام ـ الموت حرقاً في قصر ثقافة بني سويف وفي قطار الصعيد ـ نزيف الأسفلت اليومي ومسلسل حوادث الطرق الذي لا ينتهي ـ فزع وهلع أنفلونزا الطيور و الخنازير ـ توترات الشارع ... الرأي و الرأي الآخر .

نتفاعل معها بسرعة .. ثم و بسرعة أيضا ينتهي الأمر .. والقول السائد : و أنا مالي .. يا باسط .. الخ ..

و من الأمراض التي نعاني منها أيضا التناقض :

العشوائيات: بكل ما تحويه من تكوين شخصية للمصري مختلفة فيها فظاظة، نزع حساسية، عدم احترام، فقر مدقع، حرب من أجل العيش مغموسًا بالعرق والدم والصبر وممزوجًا بالتراب .. وكذلك في صورة النقيض .. المجتمع المخملي: الرائق، المختل توازنه، الضائع في بحور الجنس المحرم، الترحال ، المخدرات، الخمر، اللهو، العبث، صخب العيش، الأمراض النفسية المستفحلة، ضياع الهوية والتشتت واللهاث وراء الاستغفار باستخدام موفور المال للزكاة وعمل الخير، ثم معاودة المجون بشكل أو بآخر.

ثقافة النقيض بين المصريين على اختلاف مشاربهم مرتبطة بهويتهم وبشخصيتهم وهي بدورها متناقضة مع بعضها البعض ومع نفسها بل وللأسف لا يربط بينها رابط ، مما يؤدي إلى ظهور إدمان المخدرات، زنا المحارم، اللغة القاسية، استباحة أعراض الآخرين، القسوة البالغة، من إهدار كرامة الآخر وعدم احترامه بل دهسه والتنكيل به، العنف المعنوي والمادي، الجريمة

فإذا نظرنا إلى صفحة الحوادث في أي صحيفة يومية لوجدنا أن جرائم القتل المتنوعة .. بين الأشخاص ، و بين الزوج و الزوجة ، بل و بين الابن و أحد والديه، وهتك الأعراض والمخدرات تنال من الفئتين نيلاً ساحقًا وتنشر عبئها على الفئة (ولا نقول الطبقة) التي في المنتصف: تلك الفئة المحافظة الهادئة

نسبيًا، التي تقبض على الجمر في محاولة لتجنيب أفرادها وأولادها ويلات الفئتين الشاردتين، لكنها لا تنجو من الشظايا والخطايا واللعب بالنار .

و أخطر هذه الأمراض الشائعات

فنحن نصنع الشائعات بكلمات قد تكون بسيطة ، ونصدقها أيضا بسهولة ، حتى تصل هذه الإشاعة إلى حد الحقيقة .

نحن نصنع الشائعات ، و نجيد صناعتها إجادة تامة ، أو يصنعها أعداؤنا ، ويسر بها إلينا ، فتنطلق الإشاعة من لسان إلى آخر ، و كل لسان يزيد عليها ما يريد من خياله المبدع أو مبادئه العفنة ليصبح أبو العريف بين الناس (أبو العريف .. بضم العين) ، و في النهاية تصبح الإشاعة كالبالون المنفوخ الذي يريد أن ينفجر ، و غالبا ما ينفجر .

وأخيرا و ليس آخر ، هناك مرض ينخر في المجتمع و هو الشره

الشَرَه الاستهلاكي، الإغراء المتعمد، ثقافة الرغي : موبايل وانترنت ودردشة إلكترونية ، زهو ألوان الملابس في فاترينات المولات والأسواق التجارية المُقْتَطَعَة من الخليج وأوروبا، ثقافة الجنس و العنف، تقع الفئة الوسطى في جحيم الشد والجذب، عَضٌّ النواجذ، السقوط والتضحية، تهرب من الصراع أحيانًا بالمرض .

لقد أصبحت الكماليات في مجتمعنا ضروريات .. من منا يستطيع أن يستغني عن الثلاجة .. البوتاجاز .. الغسالة .. التلفاز .. المروحة .. المكيف .. السيارة .. الخ

و إذا كنا لا نستطيع أن نستغني عن تلك الكماليات الضروريات .. فإن الأخطر هو النظر إلى الآخرين .. غيرة أحيانا و حقدا أحيانا أخرى .. و لأن اليد قصيرة ، و العين بصيرة ، فلابد من ظهور ثقافة جديدة .. ثقافة الجمعيات لشراء

هذه الأغراض .. ثقافة التقسيط التي غالبا ما تؤدي إلى طريقين .. أولهما إرباك ميزانية الأسر .. و ثانيهما عدم القدرة على السداد ، مما يؤدي إلى السجن .

إن الأزمة تتلخص بالضبط في حقيقة أن القديم يموت، والجديد لا يستطيع أن يولد. في هذه الفترة الفاصلة،تظهر الكثير من الأعراض المرضية.

بعيدا عن ديمقراطية جورج بوش الابن التي حاول أن يزرعها في الشرق الأوسط ، مبتدئا بالعراق و أفغانستان .. بعيدا عن تلك الديمقراطية أجد ديمقراطية حقيقية ناشئة براعمها في مصر .

حزب حاكم قوي ، وحوله العديد من الأحزاب الأخرى التي تحاول أن تطفو على السطح .. بين الحين و الآخر .. دون برنامج واضح . أو كما تسمي نفسها أحزاب المعارضة ..

العديد من الصحف بأنواعها المختلفة (بيضاء و صفراء و ألوان أخرى) سواء تعبر عن الموقف الرسمي للدولة ، أم تلك التي تعارض الواجهة الرسمية ، أم تلك التي ترسل فقاعات في الهواء .

أنواع مختلفة من القنوات الفضائية انتشرت في بيوتنا ، و في المقاهي ، بعضها مؤيدة و بعضها معارضة ، كل تحاول أن تظهر نواحي الإهمال التي ضرب بجذوره في أعماق مجتمعنا – حتى تشعر – و للآسف – أنه لا أمل في التقدم أو الترقي .

و الأهم و المهم إنك تستطيع أن تجالس مجموعة من الأصدقاء المقربين أو حتى غير الأصدقاء و تتحدث بحرية تامة (و لا تتجاوز الخط الأحمر) دون أن تخاف من أن يتم القبض عليك و التحقيق معك كما كنا نسمع عن زوار الليل .

طرفي النقيض يجلسان و يتحدثان ، يعلو صوتهما أحيانا ، و يتبادلان الإهانات أحيانا أخرى ، و لكنهما في النهاية أصدقاء و أبناء وطن واحد ، يجلسون سويا في المقهى يشربون الشاي و الشيشة ، و يهرجون دون تفرقة في اللون أو الغنى و الفقر أو الدين .

في مصر أربع و عشرون حزبا ، و في أمريكا أربع أحزاب فقط .. في مصر حزب واحد حاكم ، في أمريكا حزبان يتنافسان فيما بينهما الحكم . عدد سكان مصر يتخطى الثمانين مليون نسمة ، عدد سكان أمريكا يقترب من الثلاثمائة و عشر مليون نسمة .. مصر تأتي في الترتيب العالمي الرابع عشر ، وأمريكا تأتي في المركز الثالث .

أ ليست هذه قمة الديمقراطية أن تكون عدد الأحزاب في مصر تفوق أي عدد للأحزاب في دولة واحدة في العالم ، و كم أتمنى أن تزيد الأحزاب في مصر بحيث يصبح لكل فرد له حزب . و لكن طبيعة الحياة تقول أنك هناك من يقدر .. و هناك أيضا من ينفذ .. و هناك من يتفرج .

و أظن أن أحزابنا ناقصة العديد من الأحزاب لتكتمل المنظومة الحزبية .. و تكتمل الصورة الحقيقية للديمقراطية .. فلماذا لا يكون هناك حزب للنساء .. رغم أنهن لن يتفقن على رأي واحد كالرجال .. و أنا أظن أنه سيكون هناك العديد من أحزاب النساء ..ولماذا لا يكون هناك حزب للغلابة ، يحاول أن يصل بصوتهم إلى القمة ، و إن كان صوتهم ضعيفا جدا . و ليس هذا مجال للهزل .. فهناك أحزاب كثيرة مفقودة ..

كل منا يستطيع أن يتكلم ، و يعطي رأيا فيما يدور حوله (أبو العريف بضم العين ، وسكون الراء) بل يذهب بنا الشطط كل مذهب ، فالرأي الأول و الأخير لصاحبه ، لا يتنازل عنه (ولو ..) بل هو يستطيع أن يخاصم الناس ، و يتهمهم من أجل رأيه حتى ولو كان هذا الرأي يجافي الصواب ، و إذا اشتد به اللجاج فمن الممكن أن يضرب بالأيدي من يخالفه و يشتد في معارضته اشتدادا ، أو ببعض الأسلحة البيضاء ، أو السوداء . أو أي لون آخر حتى ولو كان السباب .

و أنا لا امزح ، أركب أتوبيس ، و أفتح أي موضوع ، ستجد أن من له أو ليس له في الموضوع يريد أن يتحدث ، و قد

يسيطر من هو أعلى صوتا على هذا الحفل البهيج ، و قد يتصادم اثنان أصواتهما عالية ، و قد تتساوى الكفتان ، فلن تجد إلا الضرب هو الوسيلة الوحيدة لفرض السيطرة ، و في النهاية ستسمع من يقول أنه عالم مجنون .. مجنون .. مجنون (مع الاعتذار للفيلم الأمريكي) .

قل ما تشاء فليس الكلام عليه حساب ، و لكن إياك و الخط الأحمر ، فالخط الأحمر يعني طردك من ملاعب الحياة ، و الخط الأحمر هنا أن يكون حديثك لوقته فقط .. كلام في كلام ، و ألا يتجاوز الحديث إلى أبعد منه .. منتهى الديمقراطية .

تحدث عن الفساد ، واقرأ أيضا عن الفساد ، تحدث عن غلاء المعيشة و عن الزيادة القادمة ، تحدث عن فرص العمل التي تمنحها الحكومة لمن تخرج منذ سنوات ، و لم يجد أي عمل إلى الآن ، و قد لا يجد ، تحدث عن أزمة المرور المستعصية ، تحدث عن السيارات المتنوعة و أصحابها ، تحدث عن المصانع الجديدة التي يبنيها أصحاب الملايين ، تحدث عن مستوى التعليم الهابط ، و سياسة التعليم التي تتغير مع تغير الوزير ، تحدث عن المساكن الجديدة التي يبنيها من أخذ جزء من الصحراء ليعمرها تعميرا لأصحاب الدخول الضخمة ، أو المغتربين ، أو مساكن الحكومة التي تزمع أن تبنيها لمحدودي الدخل ، أو لمن تهدمت بيوتهم ، أو تضرروا لزلزال مضى عليه أكثر من عشرين عاما . ومازالوا في انتظار سكن لهم في قائمة المنتظرين للسكن الحكومي ، وسوف يطول الانتظار .

تحدث كما يتحدثون فقد تعلمنا أن الكلام ليس عليه ضريبة .. ربنا يستر .. و أن الكلام يذهب هباء منثورا ، و أن كلام الليل .... يطلع عليه النهار ...

تحدث عن الأغذية الفاسدة التي تستورد من الخارج لحل أزمة الغذاء ، أو الأغذية الفاسدة التي تصنع في الداخل من أجل

الغلابة . كلا الأمرين سواء ، هي أغذية فاسدة ، و كل واحد من أصحابها لا يهمه إلا الربح الحـ

و كلمة الحـ قد تعني الحلال ، أو تعني الحرام ، أو تعني حب الخير للطبقات المحرومة من الحياة .

تحدث عن أزمة المياه التي ستضرب بجذورها في الأرض ، و إن بعض المقاولون قد استطاع أن يجد الحل ، فجعلوا من مياه المجاري مياه للشرب .

تحدث .. و تحدث .. وتحدث .. و حينما تنهي ما في جعبتك من الحديث ، أظن أنك تستطيع أن تنام ، و في بطنك بطيخة صيفي .. و أظن أنك أصبحت تبع الحزب الديمقراطي ، وتخيل معي أن هذا الحزب أصبح يحكم أمريكا الآن .

التاريخ – هذا الظالم - في مجمله لا يذكر إلا الحكام و حاشيتهم من وزراء و عظماء و أكابر ، و ينسب إليهم كل عظيم من الأعمال - وكل مجد من انتصارات . هكذا كان المؤرخين يفعلون في مؤلفاتهم الضخمة .

و لكن التاريخ – يكتبه بعض المنافقين (اعتذر للمؤرخين الصادقين في تأريخ التاريخ بصدق ووعي و تمحيص)، و نسميهم من باب الأدب المؤرخين - أو قل مؤرخيه ينسون - أو يتناسون عن عمد ، أو نفاق - أن وراء تلك الطبقة طبقات أخرى من الناس ، فتشيد القصور يلزمه جحفل من العاملين العامة ؛ من بنائين و صباغين .. وحرف أخرى تتعدد و تكثر .

و انتصار القائد في معركة – رغم براعته و عبقريته و خطته الفذة - يقف وراءه جيشا يتكون من رجال صمموا على النصر ، وبذلوا أرواحهم و دماءهم رخيصة في سبيل حرية وطنهم .

افتح كتب التاريخ .. ماذا تجد .. أن الملك فلان الفلاني قد تحقق في عهده كثير من الإنجازات ، منها تمهيد الطرق ، وشق الترع ، و تأمين البلاد و العباد ، و بناء المعابد و القصور و البيمارستان (المستشفيات) ، و أنه انتصر في معركة كذا ، وكذا ، و أن وزيره قد ساهم في ذلك الانجاز العظيم بفكره و مشورته ، و السؤال المحير .. لماذا لم يصور المؤرخين تلك الطبقات التي ساهمت في هذه المهمة ، بجهدهم و عرقهم و دمائهم الحارة ؟ في هذه النهضة ، و أين هم ؟ و كيف كانت حياتهم ؟ .

و التاريخ المصري الفرعوني يصور تلك الأهرامات العظيمة التي بناها الفراعنة .. بل يذكر على استحياء تلك المشاقة التي امتدت إلى عدد من السنوات في شق الصخور ، ونقلها من

مكانها ووضعها في ذلك المكان ، وبهذا الشكل ، فأين هؤلاء العمال في كل مرحلة من تلك المراحل ؟ كيف كانوا يعانون و يقاسون ؟ لا أثر لهم .. و لا أثر لحياتهم و حياة أسرهم . وقت أن يترك الرجال بيوتهم قهرا ، و يسحبون ويقودون كالبهائم الموجودة في ديارهم لبناء هذه المقبرة للفرعون ، و لا شك أن هناك ضحايا يموتون في سبيل هذا العمل العظيم ، و من يمت فقد استراح من عناء العمل ،بل من عناء الدنيا .

فلم يقم الفرعون أو وزيره الأكبر و الأصغر أو مهندسيه بهذا العمل الفذ بأنفسهم ، و إنما من قام بهذا العمل أبناء الشعب . فكيف تفكر أنت أن يخرج كل هؤلاء و يتركون كراسيهم الحجرية الوثيرة .

و تأتي الحكومة الإسرائيلية لتعلن أن اليهود هم من بنوا الأهرامات.. خلال فترة تواجدهم في مصر .

و نفس الشيء يتكرر في مصر مرة أخرى ، و بنفس الصورة المحزنة ، حين تشق قناة السويس لتصل البحر الأحمر بالبحر الأبيض ، وتوفر للعالم الكثير من الوقت و المال ، و اللف حول طريق رأس الرجاء الصالح .. و في النهاية وضع تمثال العبقري جدا ديليسبس تشييدا لذكراه العطرة و تخليدا لفكره العبقري ، رغم أن الرجل قد قبض ثمن الفكرة من المال ، ومن دماء المصريين الذين سحبوا من بيوتهم ، ومضوا إلى المجهول ، و أظن أن الآلاف قد (نفق) في هذه المهمة التي سهلت على العالم كله حرية التجارة .

و المآسي العديدة التي صاحبت هذا العمل ، بل المعيشة الصعبة التي كان يحياها أبناء الشعب .

و أتمنى من العصابة الصهيونية أن تخرج إلى العالم و تعلن أنها من حفرت قناة السويس ، لتصبح من أروع النكت .

و يتقدم التاريخ فيذكر لنا النظام الإقطاعي و مآسيه ، وكيف كان المالك أو الإقطاعي وهو غالبا من الأسرة الحاكمة

يجني الثروات على حساب الشعب أو الفلاحين الكادحين ، قد يرسم المؤرخ ظلال باهتة لهذه الحياة ، وغالبا ما تكون هذه الملامح خارج البرواز .

و لكن هذه الحياة قد صورت ، ولكن في مجال أخر بأحسن صورة .. صورت في أدب اللغات في عصرنا الحديث . و لعل أبرز هذه القصص قصة الأرض .

فقصة عبد الرحمن الشرقاوي التي أخرجها المبدع يوسف شاهين 1970 ، تدور أحداثها في إحدى القرى المصرية عام 1933 يفاجأ أهلها بقرار حكومي بتقليل نوبة الري إلى خمسة أيام بدلا من عشر أيام فيبلغ العمدة الفلاحين أن نوبة الري أصبحت مناصفة مع أراضي محمود بك الإقطاعي ، فيجتمع رجال القرية للتشاور ويتفقوا على تقديم عريضة للحكومة من خلال محمد أفندي . ومحمود بك يستغل الموقف وتوقيعاتهم لينشأ طريق لسرايته (قصره) من خلال أرضهم الزراعية، و يثور الفلاحين - وعلى رأسهم محمد أبو سويلم- دفاعا عن أرضهم ويلقوا الحديد في المياه، فترسل الحكومة قوات الهجانة لتسيطر على القرية بإعلان حظر التجوال (قانون الطوارئ) ، ويتم انتزاع الأراضي منهم بالقوة، ويتصدى محمد أبو سويلم لقوات الأمن وبتم سحله على الأرض وهو يحاول التشبث بالجذور .

و يبدو أن الحياة قد تغيرت ، فلم تعد كتب التاريخ هي المصدر الوحيد لتصوير حياة الناس ، فبعد ظهور الصحافة .. تظهر إلى جانب أخبار القادة ، أخبار الناس .. وخصوصا أخبارهم من خلال الحوادث .

ولكن شيئا لم يتغير في نظام الإنسان .. فتعلن الصحافة عن افتتاح مشروع كذا ، أو كذا .. و أن هذا المشروع سيفتتحه فلان الفلاني بكل فخر و اعتزاز ، وأن هذا المشروع سيفيد العديد من الناس، و أنه سيفيد الاقتصاد .. الخ .. الخ . و ترى هذا الافتتاح على شاشات التلفاز .. و تسمع من فلان و هو يشرح

المشروع يقول لفلان الفلاني : كله تمام يا أفندم .. يكون هذا المشروع من أنجح المشروعات و أفيدها للاقتصاد .

و نست الصحافة رغم إبرازها لمراحل المشروع .. هؤلاء الذين يعملون في قيام المشروع .. و أغلب الظن .. أنهم يأخذون أجورهم ، فلا داعي لذكرهم . و لعل الصحافة أو التلفاز لم ينسوا .. فقد ذكروا أن هذا المشروع سيتيح العمل لعدد من العاملين ، وسوف يخدم الاقتصاد .

و بعد فترة يتبين الجميع أن هذا المشروع قد خسر .. و أنه معروض للخصخصة . ..

و يا و يلنا من الخصخصة .. و ما وراء الخصخصة .. و لكن هناك الأخطر .. أ ليس في مصر من يستطيع أن يدير مشروع دون خسارة .. و ما بالنا و نحن نعين اللواء .. على رأس المشروع .. و كأن الكفاءات في ذلك المشروع قد انتهت .. و من العجب إننا نرفع شعار غريب .. و هو " الرجل المناسب في المكان المناسب "

فوضى يا دنيا فوضى

أظن أنك تنزل كل يوم لتركب سيارتك في الصباح ذاهبا إلى عملك .. وإذا لم تكن عندك سيارة ، فأنت أيضا ستنزل كل يوم إلى وظيفتك .. أو عملك ..

أما في الحالة الأولى ..فإنك قد تجد سيارة تقف صف ثان خلف بعض السيارات التي أمام منزلك ، فإن كنت تعرف صاحبها ..فإنك ستدعو الحارس إلى إيقاظه ليبعد السيارة حتى تستطيع الخروج .. فإن لم تجد الحارس فإنك ستصعد بنفسك إليه لتخبره أن يبعد سيارته حتى تستطيع المغادرة .. و انتظر يا حلو بعض الوقت حتى يرتدي صاحبنا بعض ملابسه ليبعد سيارته . و إن كنت أنت أو الحارس لا تعرفان صاحبها فكان الله في عونك و عونه .

أما في الحالة الثانية فإنك ، فإنك ما إن تضع قدميك خارج البيت .. فإنك أمام مشكلة عويصة .. هل تأخذ الأتوبيس .. أو الميني باص .. أما المبكروباص .. أم وأمرك لله تأخذ تاكسي إذا لم تجد أي من هذه المواصلات . أو التوك توك ..(اعتذر فتلك مواصلة داخلية. و لا تستخدم على الطرق الرئيسية) .

و في كلتا الحالتين ستجد العجب : عربات تركن على الطريق ، صفا أو صفين .. قائد مركبة.. و خصوصا الميكروباص .. متهور في قيادته .. بحثا عن الرزق .. و أخذ دورا.. ونراه وهو يسوق بهذا التهور يقف فجأة في منتصف الشارع – غير عابئ بمن خلفه - لكي ينزل راكبا أو يركب راكبا معطلا حركة المرور المعطلة أصلا .. و لكي لا أتهم إنني أحقد عليهم .. أو أنظر إلى رزقهم .. فهناك أيضا بعض الشباب المتهورين .. يسوق سيارته و كأنه لا يوجد أحد في الشارع ، يخرج من وراء هذا ليدخل أمام هذا .. و كذلك بعض أصحاب التاكسي . ينطلق بعد أن يأخذ زبونه دون أن ينظر .. يكفي أنه أخرج يده مشيرا للآخرين .

ونحن جميعا نعرف أن سرعة السير في الطرقات العامة داخل البلد تكون أقل منها على الطرق السريعة .. و ذلك لأسباب كثيرة ، فبعض المارة يحلو لهم عبور الشارع أثناء مرور السيارات .. و كأنهم أسرع من هذه العجلات التي تسير بسرعة جنونية .

و لعلك معي أن بعض المناطق تكثر فيها الحوادث .. حوادث الدهس .. و حوادث الاصطدام .. بعضها يكون بسيطا ، وبعضها يكون كبيسا .

و أغلب الظن أنك لو رأبت حادث من هذه الحوادث في شوارعنا .. ستجد أن السائقين (مثنى) كلاهما قد خرج من سيارته ، و راح ينظر إلى سيارته .. ثم يبدأان في وصلة من الردح ، و تقاذف السباب ، والتشابك بالأيدي .. و أن الجمهور يشجع بحماس .. ثم يحاول الطيبون من الناس أن يصلحوا ما بين الطرفين .

مثل هذه الحوادث التي تحدث في كثير من بلدان العالم .. نجد ما ترغب في رويته .. ينزل السائق المتسبب في الحادث ، و يعطي كرته للآخر .. مداعبا إياه أنه سوف يقوم بالإصلاح .. و ستجد في نفس الوقت شرطي المرور قد رصد الحادث ، وحرر مخالفة للمتسبب في الحادث مع إعطائه جزء من إيصال المخالفة حتى يراجع القسم لإكمال المحضر . لا أدري لماذا لا يحدث ذلك عندنا ، و أقول لك إنني أدري .. فهذا العسكري الذي يقف في الشارع لا حول له و لا قوة .. أغلب الظن أنه أمي .

و إذا رأيت عسكري المرور واقفا أو ماشيا سيجل في دفتره و بقلمه أرقام السيارات المخالفة .. صف ثان .. أو ثالث.. أو هؤلاء الذين يتجاوزون إشارات المرور .. و كأنه طالبا يتعلم الكتابة في الشارع .

و نحن الوحيدين في العالم التي إشارة المرور بألوانها الزاهية لا تعني شيئا ، فآلاف الجنيهات التي اشتريت بها هذه

الإشارة قد ذهبت بلا فائدة .. في بعض الدول الإشارة الحمراء تعني التوقف ..و تجاوزها يؤدي إلى غرامة مالية كبيرة ، أو سحب الرخص و السيارة و قضية يتمنى أغلب الناس ألا يفعلوها .. بل تجاوز السرعة القانونية حسب اللوحات الإرشادية الموجودة يؤدي إلى دفع غرامة كبيرة ، رغم أن الطرق واسعة .

و ستجد أيضا شيئا غريبا لا يظهر إلا في مصرنا العزيز .. استخدام زمور السيارة في الفاضي و المليان .. وأغلب الظن في الفاضي ليعلن قائد المركبة أنه موجود في هذا المكان .. و خصوصا في الأماكن السكنية المكتظة بالسكان ، و كل مناطقنا قد أصبح مكتظة بالسكان .. و خصوصا ليلا .. و خصوصا أمام المستشفيات الخاصة .. و خصوصا .. و خصوصا .. هذا الظاهرة من الثقافات المرورية لدينا .

و ستجد أيضا بعض الناس ممن أعتاد أن يسير عكس السير .. لأن المسافة أقرب من أن يلف و يعود مرة أخر .. فإلى جانب أن تلك ثقافة عامة ، فأعتقد أن من يفعل ذلك هدفه الأسمى توفير البنزين .. أو إنه لا يحب طاعة القوانين ، وخصوصا قانون المرور .

و ستجد في شوارعنا العجب العجاب .. سيارات من القرن الماضي .. سيارات آخر موديل .. سيارات تخرج من خلفها دخان متنوع الأشكال أبيض و أسود .. و كأنها تقلد البشر و تشرب شيشة .

دعنا إذن من المرور وفوضى الشارع .. و ننتقل إلى فوضى أخرى في الشوارع . و نخرج من المرور و بلائه ، و ننتقل إلى الجزء الآخر من الموضوع ..

ستجد سوق الخضار في مناطقنا الشعبية .. بعضها في شارع جانبي ، و البعض الآخر في الطريق العام .. قد ترى البعض في محلات .. و لكن الأغلبية في الشارع إما على عربة

كارو ، و إما واضعا أقفاصه على الأرض مزاحما الطريق ، المزدحم أصلا .

ستقول لي : هذا المنظر عادي نراه كل يوم في مختلف أماكن الأسواق في المحافظات .

و لكني سوف أنظر من الموضوع من زاوية أخرى .. أنظر إلى الكم الهائل من الذباب الذي يتطاير حول هذه الخضروات .. انظر إلى ما قد رمي من مخلفات فاسدة على الأرض.. ثم أنظر إلى الفظاظة التي يتعامل بها صاحب هذه البضاعة .. و لن أقول لك على ما قد يحدث من سرقة في الميزان ، أو إجبار الزبون على شراء ما لا يحتاجه .. أو شراء أكثر مما يحتاجه .

قدم هذا التاجر من بلده لا يملك إلا القليل ، هاربا من أشياء كثيرة في بلدته ..إما الثأر ، و إما الفقر .. و بعد أن يجد العون من أحد بلدياته حتى يشم نفسه .. ويبدأ تجارته الخاصة .. رافعا الأسعار فجأة بعد اتفاق مع زملائه من البائعين .. و هو غالبا ما ينام بجوار بضاعته .. وهو غالبا ما يأكل في نفس المكان .. و كأن هذا المكان بيته .. و قد يدخل الحمام في الشارع إن لم يجد مكان يعمل فيه حمامه .

و ما إن يشتد ساعده و يثبت في المكان حتى يبدأ مشاور الصعود إلى مصاف الطبقة الوسطى .. و يميل معظمهم إل شراء الأراضي ، و بناء البيوت .. ، مساهمين في حل أزمة الإسكان .. و هو لن يأخذ منك الكثير إذا كان بيته للإيجار .. بضعة آلاف ، و إيجار جديد .. و إذا كان بيته للتمليك ، فسوف يأخذ منك مبلغ بسيط أيضا قد يبلغ أو يفوق المائة ألف ، أو قد يصل إلى مبلغ خيالي إذا كان بيته في مكان راق . . و بذلك يصبح من أصحاب الملايين ، و حينذاك يركب سيارة شبح أو خنزيرة .. و قد يصبح تاجر جملة .. أو تاجر ...

اللهم لا حسد .. بل نحن أمام مشكلة .. فهؤلاء الصنف من الناس .. يبنون هذه البيوت ، أو الأبراج الآن دون تراخيص .. فارضين الأمر الواقع .. إلى أن يستطيع استخراج التصاريح اللازمة ، وما أكثرها .. وبالطبع هذه التصاريح تحتاج إلى تقديم الهبات لمن يستطيع أن ينهي هذا الإجراءات .. لتكون يسر لا عسر .

و أيضا نسمع عن بعض الحوادث و خصوصا في أحيائنا الشعبية .. أو في العشوائيات ..أو في المناطق الراقية .. و يكون سبب انهيار بعض البيوت على رؤوس من فيها .. إلا أن الضمير قد أخذ أجازة .. و سيظل الضمير السعيد في إجازة مادام يملك المال الكافي لأن يكون هذا الضمير في راحة .. إما بسبب غش في المباني .. و إما بسبب بناء أدوار غير مسموح بها .. قدر ومكتوب على الجبين .

و نحن دائما نرمي على القدر كل مصائبنا .. رغم أننا الفاعلون لها .

و أظن إنني نسيت فيما نسيت في هذا الجزء .. أن هذا الرجل يتهرب من الضرائب ، أو الضرائب لا تعرف مكانه .. لأنه ليس في محل .

ناس لها بخت تتهرب من الضرائب ، و ناس غلابة تسمتع بدفع الضرائب الجزافية .

و مازلنا في الشارع نجول و نجول لنرى تلك الفوضى التي أعتدنا عليها ، و أصبحت لا تعني لنا أي شيء .

ولاشك أنك حينما تريد أن تذهب إلى عملك ، أو تكون في جولة حرة سائرا على الرصيف .. ستجد مقهى أو اثنين ، قد افترش صاحبها الرصيف ، ورص كراسيه و طاولته بعناية لرواده في الشارع أمام قهوته ، ووضع أمامه المشاريب و الشيشة ، بحيث تجد أنه لا مناص لك إلا أن تخرج من الرصيف و تسير

في نهر الشارع ، و من العجب أن بجوار الرصيف سيارات تقف صفا ، و أحيانا صفين ، فمسارك الطبيعي هو نهر الشارع .

و تضطر أن تسير في هذا النهر رغم السيارات التي تجوب الطريق في غير نظام ، أو في تهور إذا سمح لها الموقف بذلك .. لأن بعض الباعة قد افترشوا أجزاء أخرى من الطريق .

و مظهر آخر من مظاهر الفوضى في شوارعنا ، ستجد أن بعض طلاب المدارس يقفون أمام باب المدرسة يتحدثون .. أو يعاكسون المارة .. أو يرشقون السيارات بالحجارة التي في الشارع ، رغم أن جرس المدرسة قد قرع .. و رغم أن طابور الصباح قد انتهى .. و رغم أن الحصة الأولى قد بدأت .. ثم يدخلون إلى المدرسة .. كيف .. الله أعلم .

و قد يتكرر هذا المشهد قبل انصراف المدرسة .. أو بعد انصراف المدرسة .. و في كلا الحالتين ستسمع العجب العجاب من الألفاظ التي أضيفت إلى قاموسنا اللغوي .

منظر لا تراه إلا في مصر ، فجميع الدول تعاقب كل متأخر .. بل أن الشرطة تقف قبل بداية اليوم الدراسي و نهايته حفاظا على أبنائها المهذبين من أبنائها المشاغبين .

ومن الفوضى التي تحاصرنا وتفرض علينا وجودها تلك الحفريات التي يعج بها الشارع ، فهذه لتركيب المياه ، و هذه لتركيب الكهرباء ، و هذه لتركيب الهواتف ، و هذه لتركيب الغاز ، و هذا لا أدري لماذا .. لا أعرف و تنتهي أعمال الحفريات بعد مدة غالبا ما تطول .. و يتم الردم .. انتهى العمل ، و ترك الشارع دون أن نضع الأسفلت .. أو نضع الأسفلت على غير نظام ، فيبدو الشارع و كأنه جلباب رجل شحات .. جزء مرتفع و جزء منخفض .. بالوعة تبرز على اليمين و أخرى على اليسار . و لاشك أن الشارع مزدحم أصلا أن تأخذ مطب دون رغبتك .. و ربنا يستر و تكون السيارة سليمة .

وكأن هناك اتفاق غير معلن بأن تكون شوارعنا بهذا الشكل العجيب ، فذلك سيفتح الرزق الوفير لمن يعملون في تصليح السيارات ..

الفوضى تحاصرنا في كل مكان .. و لن نستطيع الفكاك منها .. رغم بعض المحاولات الخجولة التي تقوم بها الشرطة المصاحبة للبلدية في كل الأحيان .. و حينما تنزع بعض هذه الأماكن لمخالفاتها القانون ستجد العجب ، فهؤلاء الباعة إما أن يلملموا بضاعتهم و يهربون ،و إما أن يقعوا في أيدي هؤلاء الذين يحافظون على القانون ، و ستجد أيضا أن من صودرت بضاعته ، قد وضعتها الشرطة في البوكس .. ستسمع كلمات كثيرة جدا بعضها يوافق على ذلك المسلك ، و بعضها غير موافق .. أما الصنف الأخير .. فيدعو على رجال البلدية و الشرطة بالويل و الثبور . لأنها تقطع أرزاق الناس الغلابة .

و مرة أخرى سنجد أن هؤلاء الباعة الغلابة .. برزقهم المحدود يتهربون من الضرائب الجزافية التي تدفعها المحلات التي يقفون أمامها .

و كان الله في عون هذه البلد التي تسوقها الفوضى .

اللون الأحمر

ماذا يعني لك اللون الأحمر ؟

الأحمر هو أحد الألوان الأولية الثلاثة للضوء المرئي ؛ و هم : الأحمر، الأخضر، الأزرق؛ وأيضا من الألوان الأولية المادية ؛ و هم : الأحمر، الأصفر، الأزرق .

حاول أن تجد الاستخدام الأمثل الذي يداعب خيالك ، أما أنا فاللون الأحمر يعني لي الكثير و الكثير من المعاني .

رمزية اللون الأحمر يعرفها الجميع

فهو لون الخطر والتحذير. والحسم والرفض.

وإشارة حمراء تعنى التوقف الفوري.

و كارت لطرد اللاعب الذي يرتكب خطأ جسيما أثناء اللعب .

ولباس المحكوم عليه بالإعدام .

ومصطلح خط احمر سياسيا وعسكريا تعنى تعدي الحد النهائي للأمر.

هو لون الثورة البلشفية السوفيتية ورمز الحركة الشيوعية.

ولون الدم .

الخط الأحمر: من مظاهر الانفراج الدولي وبعد أزمة الصواريخ الروسية بكوبا انشأ خط هاتفي سمي بالخط الأحمر بين البيت الأبيض الأمريكي بواشنطن والكرملين بموسكو (الاتحاد السوفيتي سابقا).

اللون الأحمر من البداية قد يعني لي النادي الأهلي بانتصاراته التي حققها في قرن من الزمن ، ولم يستطع فريق آخر أن يحقق تلك الانتصارات على المستوى المحلي أو القاري (مع حبي الشديد لعديد من الأندية العريقة في مصر التي حققت بعض

الانتصارات المحدودة كالزمالك .. و الإسماعيلي .. و الاتحاد السكندري و غيرها من الأندية المصرية التي تحاول اللحاق بهذا البطل) . و أطلق على لاعبيه الشياطين الحمر (رغم أن هذا اللقب يخص النادي الإنجليزي مانسشتر يونايتد) ، وما أكثر لاعبيه الذين اشتهروا ، ودوت في الأفق أسماؤهم ، وذاكرة التاريخ و الجميع ، تحتفظ بأسماء هؤلاء اللاعبين. على مر الأيام و السنوات .

و قد يعني لي اللون الأحمر النار التي تشتعل بين الحين و الحين ، سواء في منازلنا لطهي الطعام ، أو في إشعال سجائرنا ، أو في حريق يلتهم بيت من البيوت نتيجة للإهمال ، أو حريق يشب في مخزن شركة ما.. أو مصنع قبل الجرد نتيجة لماس كهربائي (المتهم الأساسي في هذا النوع من الحرائق) .

و من أشهر أنواع الحرائق في العالم ذلك الحريق الذي أشعله نيرون الحاكم البيزنطي في عاصمته ؟ لماذا ؟

و قد يعني اللون الأحمر دماء الشهداء التي تسيل من أجل الوطن في معاركنا ، أو من أجل الإهمال في مرافق الوطن .

أما الصنف الأول ، فلم يكن منهم إلا الكثير في حروب ثلاث مع إسرائيل (فلا توجد إحصائيات دقيقة) ، و هؤلاء نالهم التكريم المناسب من خلال ذكرهم في وسائل الإعلام ، و بعض المنح المالية التي أعطيت لذويهم ، أما بعد ذلك فالله في عون آبائهم و أمهاتهم أو أبنائهم أو زوجاتهم . مع أن تكريم هؤلاء الشهداء في بلاد أخرى يكون بلا حدود، سواء أكان ماليا أو معنويا .

أما الصنف الثاني ، فالحمد لله ، هم من استشهدوا نتيجة انقلاب قطار أو اصطدامه ، أو تهور سائق أتوبيس و انقلابه في ترعة ، أو رعونة سائق ميكروباص أو سائق سيارة أجرة ، أو سائق سيارة خاصة .. تلك الأرواح التي أزهقت نتيجة سرحان قائد المركبة في مشكلة عائلية ، أو تناول جرعة من الحشيش

أو الأفيون تعود أن ينالها حتى يفيق أثناء السياقة .. سيكون لذويهم التعويض المناسب من الدولة ، و هاهو تعويض يساوي بضعة آلاف من الجنيهات، قد لا تغني من جوع و لا تسمن ، و يرضى بها أهل الفقيد لأنهم وفي حسابهم الفقري ، لم يكونوا بالغيها إلا بشق الأنفاس ، أو قد لا يحصلون عليها أبدا مهما طال بهم العمر

و لكن المصيبة الأكبر تلك العبارة (السلام 98) التي راح ضحيتها ألف أو يزيد من الركاب المصريين، و نجا القليل ، إهمال من الربان ، ورشة الإصلاح ، الشركة ،قضاء الله ، الله أعلم .

في 2 فبراير 2006 اختفت عبارة السلام 98 على بعد 57 ميلا من مدينة الغردقة المصرية على ساحل البحر الأحمر وأشارت التقارير الأولية عن بعض الناجين من الحادثة إلى أن حريقا نشب في غرفة محرك السفينة أو في المخزن وانتشر اللهب بسرعة فائقة وقد تمت المكافحة باستخدام مضخات تقوم بسحب مياه البحر عبر الخراطيم إلى داخل السفينة وكانت مضخات تنشيف السفينة والتي تقوم بسحب المياه من داخل السفينة إلى خارجها لا تعمل ، وأدى ذلك إلى اختلال توازن السفينة بسبب تجمع مياه المكافحة على جنب واحد مما أدى إلى انقلابها ومن ثم غرقها.

و من العجب عمليات الإنقاذ في اسكتلندا قد التقطت أول إشارات الإغاثة التلقائية من السفينة وقامت بنقلها عبر فرنسا إلى السلطات المصرية. وعرضت المساعدة. السلطات المصرية من جهتها قالت أنها لم يصلها خبر وجود مشكلة بالعبارة (من الشركة المالكة) إلا بعد ست ساعات من استغاثة العبارة.

قال العديد من الركاب أن القبطان كان أول من غادر العبارة وأنهم شاهدوه يغادر العبارة على متن قارب صغير مع بعض معاونيه. وقد هرب وترك سفينته والركاب مستخدما قاربا صغيرا يسع ثلاثين شخص لوحده. و أنا أعرف أن القانون

البحري لا يسمح للقبطان أن يغادر سفينته ، إلا بعد أن يتأكد من مغادرة الجميع لها .

تم تداول القضية على مدى 21 جلسة طوال عامين استمعت خلالها المحكمة لمسئولين هندسيين وبرلمانيين وقيادات في هيئة موانئ البحر الأحمر وهيئة النقل البحري. وتم الحكم في قضية العبارة في يوم الأحد الموافق 27 يوليو 2008, في جلسة استغرقت 15 دقيقة فقط تم تبرئة جميع المتهمين وعلى رأسهم ممدوح إسماعيل مالك العبارة (و عضو مجلس الشورى المعين) ونجله عمرو الهاربان بلندن وثلاثة آخرون هم : ممدوح عبد القادر عرابي ونبيل السيد شلبي ومحمد عماد الدين بالإضافة إلى أربعة آخرين انقضت الدعوى عنهم بوفاتهم , بينما عاقبت المحكمة صلاح جمعة ربان باخرة أخرى "سانت كاترين", وقضى الحكم بسجنه لمدة ستة أشهر مع إيقاف التنفيذ ودفع غرامة بقيمة عشرة آلاف جنيه مصري بتهمة عدم مساعدة العبارة "السلام 98" وقد قام النائب العام بعمل استئناف للحكم وأجل إلى 3 سبتمبر.

و من العجب أن هناك حادث مماثل لهذه الشركة (كل عباراتها التي تملكها تحمل اسم السلام ، حتى اسم الشركة) ، وكانت العبارة تحمل اسم " فخر السلام 95" .

و كأن السلام ناقص أن ترتكب باسمه مهازل أخرى .

فمن أجل السلام تقام الحروب ، ومن أجل السلام تصنع الأسلحة الفتاكة التي تقضي على الإنسان .. و كأنهم يقولون لكل إنسان .. أرقد بسلام الآن .

و سلام يا صاحبي (مع الاعتذار لفيلم عادل إمام و سعيد صالح)

الحكم

كرة القدم بتاريخها العريق ، أصبحت من اللعبات الشعبية في العالم أجمع ، و رغم أن هناك بعض الألعاب التي تحاول أن تنافسها .. كالركبي في أمريكا ، و الكريكيت في الهند و باكستان

و أصبحت كرة القدم معبودة الجماهير .. تتنافس الفرق في دولة واحدة على جذب الجماهير إليها ، و التعصب الجنوني لفريقها .. و في كل دولة فريق أو فريقين مميزين أو أكثر ..

و تاريخ كرة القدم الذي لن أعرج إليه إلا في إشارات خاطفة ، يشهد على أن اللعبة لها ثقلها الكبير .. فقد قامت حرب بسببها في أمريكا اللاتينية بين دولتين جارتين هما الهندوراس و السلفادور.. نتيجة التعصب الأعمى و الجنوني .

و قد قام الدوتشي موسوليني يحشد جهده لتنظيم كأس العالم في إيطاليا سنة 1934 (التي اشتركت فيها مصر) و يحضر الزعيم موسوليني و جنوده المباراة النهائية ، و كأنها إعداد لحرب مهمة .

ذكر هذه الحكاية المعلق الشهير محمد لطيف – رحمه الله ، الذي كان في وقتها لاعب الزمالك ، و أحد أعضاء الفريق المصري في هذا المونديال بأسلوبه الساحر الظريف في أحد المباريات ، و كان الجمهور أغلبه من الجنود .

وتوترت العلاقات الدبلوماسية بين دولتين (مصر و الجزائر) ، و أقيمت مباراة فاصلة سبقتها تصريحات و لحقتها تصريحات تدل على التعصب الأعمى ، و ألغيت مباريات بسبب الجمهور أو بسبب (طوبة) مصر و الكونغو .

و أصبحت هناك دول تتميز بتفوقها الدائم في هذا المجال كالبرازيل ، و ألمانيا ، و إيطاليا ، و الأرجنتين .. يعمل لهم ألف حساب في بطولة كأس العالم .. و اختفت دول كالأرجواي و البارجواي من الساحة ، و أطلت دول برأسها لم تكن على الخريطة تزاحم الكبار كالسعودية و كوريا و اليابان .

و أتذكر فيما أتذكر أن إنجلترا لم تأخذ كأس العالم إلا بعد عناء شديد ، وكذلك جارتها فرنسا .. رغم أن الإنجليز هم كما يقول التاريخ أصحاب اللعبة . والواضعين لقانونها الأولي ..

و أتذكر فيما أتذكر أن مصر كان لها دورا كبيرا في مجال كرة القدم .. رغم أنها لم تدخل كأس العالم إلا مرتين .. و لكنها سجلت بعض الأرقام القياسية في دورة الألعاب الأولمبية .

و تستقدم حاليا الدول مدربين ذوي سمعة عالمية عالية حتى يعد فرقها للمواجهة في المحافل الدولية .. و يصل عقد بعض هؤلاء المدربين إلى أرقام فلكية في الشهر الواحد . و بذلك تصبح كرة القدم مثل الطماطم مجنونة .

و تتغير شهريا ترتيب دول العالم المصنفة ، فتتقدم دولة في التصنيف ، ثم تتأخر ، و هكذا ، و لا ينافسها في هذا المجال إلا لعبة التنس .

ولا يهمني في كرة القدم كل ما يجري ، فأنا أميل إلى تشجيع اللعبة الحلوة ، و أتمنى أن يفوز الفريق الأجدر والأحق في المباراة التي لعبها ، وتفوق فيها ، حتى و لو كان فريقا صغيرا مغمورا ، فذلك حقه ، رغم ما نراه من الجمهور الذي يصب جام غضبه على اللاعبين أو المدرب أو الحكم .

و ما دمنا قد وصلنا إلى حكم المباراة (بفتح الحاء و الكاف) ، فنحن أمام ظاهرة فريدة تستحق الملاحظة و الانتباه .

حكم المباراة الذي كان زمان يرتدي الشورت الأسود و الفانلة السوداء ، أصبحنا الآن نراه يرتدي ألوانا زاهية تجذب إليه الأنظار .. أبيض أحيانا ، أزرق تارة ، أحمر نادرا .. إلى جانب بعض الخطوط .. و كأنه يتتبع الموضة .

و حكم المباراة هو المسئول الأوحد لإدارة المباراة ، و السيطرة على اللاعبين في أرض الملعب ، و السيطرة على

المدير الفني ، و الإداريين خارج أرض الملعب ،و تحمل الجمهور في المدرجات .

و يذكر لنا تاريخ اللعبة كثير من الحكام العظام الذين اشتهروا بالنزاهة ، و الأمانة .. و أذكر أيضا أن هناك أخطاء غريبة تحدث في تلك المباريات .. فحكمنا الدولي على قنديل – رحمه الله – أنهى شوطا قبل نهايته بسبع دقائق .. وأن حكما أحتسب هدفا سجله اللاعب الدولي ماراودنا باليد .

و الحكم كان الله في عونه .. و خصوصا في كرة القدم ، ففي السلة و اليد و الطائرة الحكم مرتاح ، فالملعب صغير ، يستطيع أن يراه بسهولة ، و خصوصا أنه في بعض الألعاب يوجد أكثر من حكم ..

كان الله في عون الحكم .. فهو أولا يجب أن يكون ملما بكل القوانين ، ويحاول أن يطبقها بحذافيرها ، و هو في الملعب يحتاج إلى لياقة بدنية عالية لكي يكون في المكان المناسب و الزمان المناسب للكرة ، و بحسبة بسيطة نجده يجري في أرض الملعب أكثر من أي لاعب ، فإذا كان اللاعب يجري ما بين خمسة أو سبعة كيلومترات في المباراة ، فإن الحكم يجري ما بين عشرة إلى خمسة عشر كيلو في المباراة الوحدة .

و هو عليه أن يتابع اللاعبين ، كل اللاعبين .. سواء أكان معه الكرة ، أو لم تكن معه ، و عليه أن يتنبه إلى أداء بعض اللاعبين الذين لهم موهبة التمثيل ، ويجيدون التمويه ، و أن بعض اللاعبين يلعبون بجديه ،وتكاد هذه الجدية تكون نوع من الخشونة .

و عليه أيضا ألا يطلق صفارته في الفاضي و المليان ، كما يفعل أصحاب السيارات ، حتى لا يفسد بهجة المباراة ، و عليه أن يستخدم الكارت الأصفر أو الأحمر في الوقت المناسب له .

كل ذلك جال في خاطري و أكثر .. وتذكرت أن الحكم إنسان يصيب ويخطأ ، و لكن خطر في بالي سؤال غريب ، و أنا أجلس و أشاهد أحدى المباريات .. هل الحكم ديكتاتور أو ديمقراطي ، فحكمه النهائي الذي أعطاه له القانون يجعله في موقف حرج .. الخطأ يؤدي إلى ما لا يحمد عقباه ، يؤدي أولا إلى فوز فريق لا يستحق الفوز في المباراة ، إلى خروج لاعب بالطرد رغم أنه لم يرتكب خطأ يستحق عليه الطرد ، أو أن اللاعب المنافس استفزه .. و قد حدث ذلك بالفعل حين طرد الحكم اللاعب الفرنسي زيدان من أصل جزائري زيدان .

و الحكم في المباراة .. أي مباراة .. ينبغي أن يكون هادئ الأعصاب ، بعيد عن توتر اللاعبين .. وتوتر المدربين .. و توتر الجماهير .. و نلمح ذلك حينما نرى الحكم مبتسما .. و الويل كل الويل من الحكم الذي تتوتر أعصابه في المباراة ، أو يرسم التكشيرة على وجه الجميل ، و يحاول أن تكون الصرامة هي أسلوبه في إدارة المباراة .

و من العجب ، ونحن نستمتع بالمباراة ، نجد في ملاعبنا العربية (فقط) أن اللاعب يحاول أن يفرض رأيه على الحكم ، فيشير إليه بإنذار لاعب بعد الخطأ الذي أرتكبه اللاعب الآخر .. و أن المدير الفني ساخط على خطأ لم يحتسب .. قد يؤدي إلى فوز فريقه ، أو خطأ احتسب على فريقه ، جعل كل الموازين تتغير .. كل ذلك يؤدي إلى توتر المدرجات ، وهياج الجماهير .. و التلفظ بألفاظ بذيئة تجاه الحكم .

و أعود إلى السؤال مرة أخرى ، هل الحكم ديكتاتور أو ديمقراطي ، هل الحكم محايد ، أم منحاز .

كانت المباراة التي نشاهدها مخيبة للآمال ، فقد سجل الفريق الضيف هدفا ، و سرعان ما أرتد إلى الخلف ، و قد بنى حائطا دفاعيا فولاذيا ، أو جدارا عازلا كالجدار الإسرائيلي الشهير أو الألماني .. ولم يفلح الفريق صاحب الأرض في

اختراق هذا الجدار ، و باءت كل الهجمات المنظمة و العنترية بالفشل الذريع ، بل استغل الفريق الضيف هذا الهجوم الشرس ، و بدأ مع مرور الوقت يلعب على الهجمات المرتدة ، و استطاع أن يسجل هدفا أخر .

رغم الخشونة الزائدة عن الحد المسموح به ، إلا أن الحكم تغاضى عن بعض هفوات اللاعبين ، و كأنه يقول لنفسها : هل هي ناقصة أن أنذر ، أو أطرد ، و لكنه اضطر إلى إظهار الكروت التي تغافل عنها فترة ، و اضطر إلى طرد أحد اللاعبين ، و تغاضى عن طرد الآخر .

و نتيجة لذلك ، وحيث أن المباراة صارت في اتجاه واحد لا أمل في تغييره حتى في عبقرية المدير الفني ، و حتى في وجود اللاعبين ذوي المهارات العالية ، و الأسماء الرنانة .

قال أحد المتحدثين ، وهو رجل وسيم يرتدي حلة فخمة ، لا أعرفه ، و لم أراه من قبل .. قال : إن الحكم يجب أن يكون ديكتاتورا .. في صورة ديمقراطية ، عليه أن يبتسم في الوقت المناسب ، و أن يتجهم في الوقت المناسب ، و أظن أنه يجب أن يكون محايدا .

و عادت بي الذاكرة من جديد إلى بعض الحكام الأفارقة و الأسيويين غالبا ، و تذكرت بعض المجاملات لأصحاب الأرض ، وأخذت أبحث عن المبرر .. هل هو مجاملة لأصحاب الأرض ؟ .. ممكن .. هل خوف من الجماهير الغاضبة ؟ .. و الله ممكن .. و حيث أنه لا يوجد مبرر ، فيكفي أن أقول أن الحكم إنسان يصيب و يخطأ .

ابن الوز عوام

هذا المثل من أمثالنا الشعبية الخالدة ، الذي استمسكنا به ، وتوارثناه جيلا عن جيل ، وعملنا به في أوقات الرخاء و الشدة . دائما ابن الوز حياته هي الغش و الواسطة ولهذا بتدحرج مصر للنهاية السوداء.

و المصريون يحبون الوز حبا جما ، و لا يعادله إلا البط ، حتى أنهم حين يرون امرأة تسير في الشارع معجبة بنفسها ، يرتفع جانبا من جوانبها ثم ينخفض ، و تنتقل هذه الحركة إلى الجانب الأخرى ، فيقول مسارعا معجبا " هز يا وز " .

و أنت تجد هذا المثل ينطبق على كل المهن الموجودة في بلدنا ، دون استثناء ، فبواب العمارة يحاول جاهدا أن يكون ابنه أو كل أبنائه في نفس صنعته ، ويحزن كل الحزن حينما يشذ واحد من أبنائه عن مهنته .

و ابن البقال سيكون بقالا مثل أبيه .. و سنجد على يافطات المحالات .. أولاد .... أو .... و أولاده ، هكذا ..

وقد كثرت النكت في هذا الشأن : ففي إحدى النكت يقول بواب لبواب تقابلا : كيف حالك و حال أولادك ، فيرد عليه زميله : الحمد لله ، و الأولاد كلهم بخير ، كلهم بوابون ما عدا الولد الصغير فشل و أصبح مهندس ..

و دعنا نأخذ بمبدأ القياس ما شاء الله لنا أن نأخذ به في شتى المجالات ، فعلى سبيل المثال ، الفنانون و الفنانات يجاهدون في أقرب فرصة لأن يزرعوا أبناءهم في أعمالهم أو أعمال أصدقائهم من الفنانين ، سواء أكان موهوبا أو غير موهوب ، و سواء أكان عن دراسة أو غير دراسة ، ومن يشذ عن تلك القاعدة له واسطة ، أو مواهب خاصة ؟!

و إن شئت أن تصدق أن المثل صحيح و أنه يطبق في مصرنا الحبيبة ، فأحسن تطبيق سيكون على أبناء الأطباء أو المحامين أو الصيادلة الذين يجتهدون ليكون أبناءهم مثل آبائهم أو أمهاتهم ، لا يهم البارعة فسوف تأتي من خلال ممارسة المهنة

و لكن الأغرب و الأعجب ، ما نراه في الجامعات ، حيث يبذل الدكتور جهده في غرس أحد أبنائه ليحل محله فيما بعد .

فإذا ما هبطنا درجة أو درجتين ، فسنجد أن طبقة الموظفين العليا تحاول أن تثبت أبناءهم في وظيفة ، فإذا ما تم المراد ، و نفذ أمر العباد ، ونجح في ذلك ، كان الطريق أمام هؤلاء مفتوحا ، علاوات و ترقيات ليكون سلم (أسانسير) النجاح و الفلاح من نصيبهم ، وما هي إلا سنوات قليلة حتى تكون المناصب العليا من نصيبهم ، متجاوزين في ذلك الأقدمية ، أو أصحاب الكفاءات ممن يسبقونهم في التعيين .

و فكرة التخصص فكرة قديمة قدم الحياة نفسها ، و أظن أنها نشأت نتيجة النظام القبلي الذي ساد الحياة الإنسانية ، فزعيم القبيلة ، أو سيد القبيلة يصبح أحد أبنائه زعيما أو سيد القبيلة .

و هكذا الحال ، ففي النظم الملكية يتوارث الأبناء الحكم ، يرث الأمير الحكم ، و إن شئت الشعب ، يفعل ما يريد بمن يريد .

ولكن العجب كل العجب أن ينتقل الحال إلى النظم الجمهورية ، فقد حدث ذلك في أمريكا .. جورج بوش الأب يرثه ابنه جورج بوش الابن ، رغم أن الانتخابات هناك نزيهة ، و للمرشح برنامج انتخابي واضح ، يعمل على تنفيذه في الفترة الأولى ، و ينسى وعوده في الفترة الثانية .

و إذا شئت مثال أوضح ، فستجده في سوريا ، فالرئيس حافظ الأسد ، حينما أحس بالنهاية المحتومة ، و أنه لا محالة تارك الدنيا إلى الدار الآخرة الباقية ، طالب بنقل صلاحيات الحكم لابنه في سوريا ، بعد تغيير بسيط في الدستور ، و بالفعل يأخذ الابن مكانه في الحكم ، و يوزع المناصب المهمة لإخوانه ، و محاسيبه .

و هكذا نجد أن المثل ينطبق انطباقا في شتى مناحي المهن في حياتنا ، وأنه إلى يوم الدين لن يشذ ، و إننا عاملون به ، متمسكون بأهدابه ، ونشد عليه بالنواجذ .

السياحة في مصر

شركات السياحة تروج و تدعو الأجانب إلى زيارة مصر .. هذا ما نسميه السياحة .. وهذه السياحة تدر دخلا قوميا كبيرا .. من خلال شركات الطيران .. و إشغالات الفنادق .. و زيارة

الأماكن السياحية في الجيزة .. أو الأقصر و غيرها من الأماكن السياحية في مصر .. و شراؤهم الآثار المقلدة من أماكنها في خان الخليلي .. الخ ..

و يستمتع السائح بما لا يستمتع به المصري في بلده .. و غالبا ما يجد السائح أمامه دليل أو ترجمان حفظ بعض الجمل والعبارات عن أماكن الزيارة ، يرددها .. صحيحة كانت أو غير صحيحة .. لقد حفظها مثلما قيلت له كمرشد سياحي ، أو أصبح يرددها دون وعي ..

و من الغريب أن الرحلات المدرسية التي تزور هذا الأماكن لتعريف التلاميذ بحضارة بلادهم يقودها إما معلم جاهل أو معلمة جاهلة بهذا التاريخ العظيم ، يردد عبارات قد سمعها هو أيضا ، أو قرأتها في بعض الكتب المتداولة . المهم في الرحلة أن يستمتع التلاميذ بهذا اليوم بعيدا عن جدران المدرسة الذي يشبه جدران السجن و زنزاناته .

علماء المصريات والباحثين الأجانب ينشرون العديد من الكتب عن هذه الحضارة الفذة في كل مجال .. في الهندسة وعلم الفلك ، و الطب ، و الصيدلة .. الخ .. و نكاد نبهر من هذه المؤلفات .. أما نحن فننشر بعض المؤلفات على خجل و استحياء ، فمؤلفيها يعرفون أنها لن تخرج عن أسوار الجامعة أو حيطان مكتبتها أو المكتبة العامة .. وأن عدد القراء لن يتجاوز أصابع اليد الواحدة من الطلاب الجادين ، أو من المهتمين بهذه الحضارة .

فمصر القديمة حضارة لا ينضب معينها ، وكل يوم يتم الكشف عن أسرارها المخفية .. بل أن الباحثين الأوربيين يعترفون أن هذه الحضارة اكتشفت ما لا يزال يكتشف إلى اليوم في كل المجالات .. في وقت كان الأجداد الأوربيين يعيشون في الكهوف .

في كتبنا المدرسية نتعلم : أن مينا هو موحد القطرين .. و أن أحمس قاهر الهكسوس .. هذا ما يهمنا أن نعرفه عن

تاريخنا أو حضارتنا .. نتحدث عن الملوك الفراعنة فقط .. و لا نتحدث عن علماء الفراعنة في شتى المجالات .. (وجهة النظر في التاريخ العربي عموما ، هو تمجيد الحاكم ، و أعماله) .

و تقوم القيامة حين نجد أن بعض الباحثين المصريين يبين أهمية هذه الحضارة ، و أن هذه الآلهة المتعددة في معابد الفراعنة ، و هذه العبادة التي قامت على التوحيد .. و قد أيد بعض الباحثين الإنجليز هذا الرأي .. و أثبت بالدليل أن تلك الآلهة ما هي إلا رموز نرمز إلى الإله الواحد المتعالي .

تقوم القيامة فيندفع أحد الناس أو الجماعات بالدفاع عن الدين ، و أن الفراعنة كانوا يعبدون الأصنام .. وسواء صدق هذا الجهبذ ، أم لم يصدق في دفاعه عن رأيه .. فهو يريد أن يبين وجهة نظره . و الدفاع عن وجهة النظر ليس خطيئة ، إنما الخطيئة أن يدافع بلا دليل ، وبلا وعي ، و بلا ثقافة ، و عن جهل مطبق .

و أمامي العديد من الأسئلة الملحة حتى نرضي بعض هؤلاء الناس .

هل نطلب محو هذا التاريخ الذي يمتد تاريخها إلى عدة آلاف من السنين ، و كأنه لم يكن .. رغم أن الإسلام كان متسامحا أشد التسامح مع أصحاب الأديان الأخرى ؟

هل نطلب أن نهدم كل هذا الآثار كما فعلت جماعة طالبان في أفغانستان حينما محت من الوجود آثار بوذا ؟ .

هل نطلب من القائمين على أمرنا أن نأخذ تلك الآثار الذهبية ، و نعيد سبكها من جديد .. و في هذه الحالة سنعيش في (نغنغة) إلى الأبد الآبدين .

هل نطلب أن تلغى السياحة من مصر حتى لا نرى هؤلاء الأجانب بملابسهم الخليعة .. و هم يسيرون في الشوارع بشورت .. وفانلة تكشف أكثر مما تستر .. و كاب ليقي رؤوسهم من

أشعة الشمس في الصيف ، ومن المطر في الشتاء (أعتذر يوجد فيلم بهذا الاسم) .

أم ندعو هؤلاء الجهابذة إلى التفقه والتعمق في هذه الحضارة ، ليخرجوا لنا بشكل جديد ، فدروس التاريخ فيها العبر لمن يعتبر .

و السياحة في مصر تتلقى الضربات .. الضربة تلو الضربة .. و تأن السياحة من تلك الضربات .. سائق متهور ينقلب به الباص الخاص بنقل السياحة نتيجة اصطدامه بسيارة نقل ، تناول صاحبها الإصتباحة اليومية .. جماعة تهاجم السياح .. الأماكن شبه السياحة التي تجتمع فيها القمامة ، و الأتربة ، أو أصابتها يد النسيان ، فأصبحت مهملة تكاد تكون مهدمة بفعل الزمن و الإنسان .. أو جماعة تقوم على تهريب الآثار السياحية إلى خارج مصر بأثمان بخس .. و كأنها تقول للدول الأخرى .. خذوا هذه الآثار ، وضعوها في مخازنكم ، أو متاحفكم .. و لتكن السياحة قبلتكم ، و كأنه إبرهة الحبشة التي أراد أن يبني كنيسة في اليمن تكون قبلة الحجاج .

و السائح حينما يأتي إلى مصر سائحا.. تعنيه الآثار في المقام الأول .. و لكن له أهداف أخرى .. يريد أن يعرف حياة الشعب الذي أبدع أجداده في هذه الآثار .. و لعله يفاجأ أن مفهوم الحضارة قد تغير ، ولكن إلى الأسوأ .

الجهل .. يا ..

أنهيت أعمالي الإدارية ، و جلست إلى مكتبي على كرسي المريح .. لحظات حتى أرتاح من عناء العمل .. ووضعت يدي خلف رأسي و أملتها إلى الوراء .. و ما كدت ..

قال لي رئيس القسم : إذا كنت قد أنهيت عملك ، فأذهب إلى بيتك ، و أرتاح ..

ابتسمت ابتسامة المتعجب .. و لكني نظرت إلى الساعة التي لم تتجاوز العاشرة و النصف صباحا .. و أردت أن أكمل ما بدأت من راحة .. و لكن أين الراحة مع هؤلاء الزملاء المزعجين الذين يتركون أعمالهم و يدردشون .

قلت له : ما زال الوقت مبكرا ، أنت تعرف إنني سوف أذهب لأحضر ابنتي من المدرسة .

و ما كدت أنهي جملتي ، حتى جلس بجانبي أحد الزملاء من أبناء البلد .. جاء فرحا .. و عنده من الكلام ما يريد أن يقوله لي أو لنا ..

سألته كالعادة .. فأنا أعرف أن هناك ما يريده .. فهو يعد رسالة الماجستير ، و لابد أنه جاء ليأخذ رأي .. أو يكلفني بعمل أحد الأبحاث .. حيث أن وقته شبه ضيق ..

قلت له : خير .. ماذا تريد ؟

قال لي و قد دخل في الحديث من غير مقدمات .. هل قرأت صحف اليوم .. في جريدة الأنباء .. إحصائية ظريفة ..

قلت له : و ما مضمونها ؟

قال : تقول الإحصائية ، أن نسبة القراءة في الوطن العربي لا تتعدى واحد في المائة .. و أن المدة التي يقرأ فيها المواطن (..) لا تتعدى الدقائق الخمس .. و أنها ترتفع في بعض الدول ، و تنخفض في دول كثيرة .

قلت له : و ما الجديد في هذا ؟ كل ذلك معروف .. ما إن ينتهي الدوام المدرسي حتى تجد الطالب قد وضع كتبه المدرسية ، وارتاح ، ثم انصرف إلى اللهو ، أو مشاهدة التلفاز ، أو مصاحبة بعض أترابه في .. أما من قد شب على الطوق ، فهو يذهب إلى المقهى .. ليكمل السهرة هناك .. أو يذهب إلى الديوانية ليلهو

بالحدث مع زواره . و النساء .. آه .. إن لم يكن عندهن زيارة .. فإنهن يذهبن إلى السوق .. للفرجة ، أو التمشية .. أو الشراء .

قال محدثي : أنا أتكلم بجد .

قلت له : و أنا مثلك .. لولا أن هناك حصة في المنهج المدرسي .. تتيح للطالب أن يقرأ قراءة حرة .. لقلت لك إن الوضع خطير .. و من العجب أن وزارة التربية قد قيدت أيدي معلميها .. فلا تستطيع أن تطلب من تلاميذك أن يعدوا لك بحثا .. و إن خالفت التعليمات و طالبت ذلك .. فإن الطالب يذهب إلى مكتبة من مكتبات السوق ليعد له البحث ، ويأخذه هذا من النت إذا لم يكن جاهزا عنده ، و يطبعه و يعطيه للطالب ..

قال محدثي و قد عرف أن اتجاه حديثي ينصب على بلده .. وهو يريد أن يذهب بالحديث إلى اتجاه مصر .. و نظرت فإذا جميع الأخوة المصريين يبتسمون .. لأنني قد حولت اتجاه الحديث .. و أحببت أن أريح محدثي .. و ماذا عن التقرير الذي قرأته .. أين موقع مصر في هذا التقرير ..

قال لي و قد ظهر على وجهه بعض الخجل : لا أقصد ذلك .. إنما أريد أن أحدثك عن التقرير و ما فيه .. كنوع من الحوار .. و كيفية معالجة الأمر .

قلت له : إن الوضع لن يتغير أبدا .. فنظم التعليم في الوطن العربي ، ومن بينها مصر .. تعتمد على التعليم المغلق .. على التلقين .. و الطالب مضطر إلى الحفظ .. ليؤدي الامتحان و ينجح . . حتى طلاب الجامعة يفعلون ذلك .. أين دور التعليم المفتوح .. أين دور القراءة الحرة التي تنمي شخصية الإنسان .. أين إرشاد المعلم لأبنائه الطلاب في القراءة الخارجية التي تعلي من الثقافة .. و في بعض الدول و منها مصر : أين المكتبة المدرسية .. مغلقة ، وقد علا التراب الكتب .. و هنا أيضا .. أمين المكتبة نفسه .. أين هو .. غالبا ما يحضر في الصباح ، و يترك المفاتيح مع الفراش و يذهب .

قال لي : لماذا لا نعقد مسابقة للأبحاث الأدبية أو العلمية التي يدرسها الطلاب بشرط أن يعيدوها بأنفسهم.. و بخط يدهم .. و نعطي (جوايز) لأحسن ثلاث أبحاث .

قال له أحد الزملاء الصامتين : لقد قال لك ، أن الطلاب سوف يذهبون إلى أي مكتبة و يعدون بحثا أو اثنين .. و للأسف لن يذهب الطالب ، و لن يذهب الأب أو الأم ، و لكن سيذهب الهندي الذي يعمل عندهم .. مهزلة .

و قال زميل آخر :

و على حساب من هذه الجوائز العينية أو المادية .. فأنت تعرف إدارة المدرسة ، فإنها تميل إلى التقشف .

قال الزميل : إذن لا حل لمشكلة الجهل المتفشي بين الصغار

قلت له : ليس الصغار بل الكبار أيضا .

و تضاحك الجميع من هذا التعليق .. و قلت مستطردا ، و قد زحف الوقت ، و هناك من يريد أن يذهب إلى حصته ، أو يغادر المدرسة ليذهب إلى بيته : أما أنا فكان الحل عندي فرديا ..

(رغم نظر الجميع واستغرابهم من كلمة فرديا فقد استطردت في حديثي) : أجمع أولادي الثلاث كل ليلة ، وقبيل النوم ، و بعد أداء فروضهم اليومية .. و أطلب من أحدهم أن يقرأ لي أي كتاب من المكتبة .. و بعد القراءة يتم مناقشة الجزء المقروء ، و بهذا عودتهم على القراءة ، و على الحوار المنظم .

و قرع الجرس .. و انتهى الحوار الذي لم يكتمل ، وأظنه لن يكتمل ..

اغتصاب

تتعدد الجرائم و تتنوع في كل مجتمعات الدنيا المتحضرة ، أو التي لم تصبها الدور لتنفض عنها عباءة التخلف .

و مع انتشار جريمة ما تعقد الندوات و المؤتمرات ، و تقدم الأبحاث الدراسية المتعمقة في بحث أسبابها ، و ظواهرها ، و محاولة الحد منها ، أو القضاء عليها .

و لعل من أشهر الجرائم التي تواجه المجتمعات كلها جرائم الاغتصاب و الاختطاف و النصب و الاحتيال ، و السرقة .. و تتفاوت طريقة أداء هذه الجرائم في كل مجتمع حسب ثقافته ودرجة تقدمه في السلم الحضاري .

و أصبحت هذه الجرائم مألوفة اعتاد عليها الناس من خلال قراءتها في الصحف السيارة التي تصدر كل يوم في مصر ، و في غيرها من الدول ، فأنت تسمع عن جريمة اختطاف ، و تعاطف مع أهل الضحية حينا ، ثم يتلاشى الخبر من ذاكرتك ، و هكذا في جرائم الاغتصاب ، أو الاحتيال ، و النصب ، أو في سرقة البنوك .. الخ ..

و لن أناقش معك هذه الجرائم التي تشغل بال العالم أجمع ، و لكني سأقف معك أمام بعض الجرائم التي يشتهر بها المجرم المصري دون سواه من المجرمين العالميين .

و جرائمنا اليوم جرائم غريبة عجيبة .. تحدث ، وكأنها لا تحدث .. تحدث و لا ننتبه إلى حدوثها .. رغم إنها تعنينا .. و سوف يصيبنا الدور في يوم من الأيام .

أركب أوتوبيس مزدحم ، و جميع أتوبيساتنا مزدحمة، أو قف في طابور مزدحم .. قد تسمع من يسأل المحصل أن فكة .. و أنصحك ألا تتحسس جيبك الذي تضع فيه راتبك الذي قبضته اليوم .. فإنك بذلك ترشد السارق ، وتدله إلى هدفه الذي يسعى إليه .

إن أصابك الدور أو لم يصبك حتى الآن .. تلك ليست المشكلة .. و المشكلة لها شقان . كلاهما يجب الاهتمام به ، و الحديث عنه بصراحة و دون مواربة .

الشق الأول مع المسروق حيث سلب منه أعز ما يملك ، سلب منه راتبه الذي يتوكأ عليه ، و يعتمد عليه في سد أركان معيشته ، و رغم حساباته البسيطة التي يعتمد عليها ؛ من إيجار ، و مصروف للأولاد الذين يذهبون إلى المدرسة مادين أيديهم كل صباح ، وكأنهم متسولين .. و ميزانية الأكل و النور و الماء و المواصلات .. و ما يكاد ينتهي من الأساسيات الضرورية لحياته ، و حياة زوجته و أولاده ، حتى يبحث في الذاكرة التي تعانده و تعمل بجد و نشاط ، فتذكره بالأقساط التي عليه ، و تذكره بمناسبة ما قد انزوت ، و لم يعد لها محل من الإعراب .. كعيد زواجه ، أو عيد ميلاده ، و ميلاد زوجته أو عيد ميلاد أولاده .. أو زواج أحد من أقاربه أو أقارب زوجته .. أو زيارة مريض .. أو مرض يصيبه أو يصيب أحد أفراد أسرته .

و يقف هذا الراتب المريض الهزيل حزينا لأنه وقع في يدي هذا الرجل .. و تفرق في نفس اليوم الذي أراد أن يرتاح فيه ، و لو قليلا ، من عناء الترحال .. و كثرة الانتقال من جيب لجيب ، و من يد إلى يد ، و ها هو يقع في يد نشال .

الشق الثاني هذا السارق .. و الذي سنتفق جميعا على موهبته الفذة في سلب البسطاء أموالهم .. و في خفة يده التي لا يدانيها خفة في اليد إلا جراح ماهر (مع الفرق بالطبع) فالجراح الماهر بعد أن شخص الحالة تشخيصا دقيقا ، ووضع البنج لمريضه حتى لا يصاب بالهلع أثناء جراحة العملية .. الجراح الماهر يعرف الطريق جيدا إلى مكان عمليته ، و يعرف أيضا أن الحرص واجب لأن بين يديه حياة إنسان يجب أن ينقذه من آلامه .. ولكن النشال و في خفة يده ، وهو ينتقل من جيب إلى آخر .. لا يعرف أنه بهذه العملية سوف يزيد الآلام أسرة ، و جراحها ، شهرا أو ما يزيد .

و النشال يؤدي مهنته بأمانة ودقة متناهية النظير ، فالنشل مهنة ككل المهن التي يمارسها البشر ، قد يعجز عنها أصحاب الخبرات في مهنهم .. لأنه يعرف جيدا أن أقل خطأ سيقوده إلى ما

لا يحمد عقباه ، بل يقوده إلى التعطل عن العمل ، و التنطع في الأقسام ، و الحبس في السجون ، متحملا الآلام التي يتعرض لها ، من يد تبحث عن قفاه ، أو رجل تركله و كأنه كرة حتى يعترف بجرمه المشهود ، بل ستحرمه من الحرية .. و تجبره على التقييد بأنظمة المكان الذي قبع بين أركانه .

و يحتار النشال في هذه المبالغ التي أخذها بسهولة ، أين سيتم صرفها .. وأوجه الخير عنده كثيرة .. هل يذهب إلى بار أو ملهى ليلي .. و إن كان مستواه الاجتماعي لا يسمح له بذلك .. فلا شك أن سيبحث عن شيء مفيد له .. فليشتري من رزقه ، وعرق جبينه قطعة من الحشيش أو الأفيون .

و دعنا من الحديث عن الدول الغربية ، و النظام الصارم للباصات (الأوتوبيسات) في دقة مواعيدها ، و في نظام جلوس الأفراد على الكراسي المخصصة لهم .. و ندخل على بعض الدول العربية التي يكون الباص فيها وسيلة من وسائل التنقل .. فلا نرى تلك المظاهر التي نراها عندنا في مواصلاتنا .

تكتظ جميع المواصلات اكتظاظا غريبا ، و كأن هذا الأتوبيس آخر أتوبيس في ذلك اليوم ، وبعدها ستقف الحياة عن الحركة .. و يمتلئ الأتوبيس حتى أن بعض من لم يجد له مكانا في داخل الأتوبيس يقف على السلم ، أو يضع رجله على السلم ، وجسده في الهواء الطلق .. و ستجد حتما أنه بعد فترة من الزمان قد مال الأتوبيس على جانبه ، و كأنه رجل أصيب في حادث ، فأصبح يعرج ، أو رجل عجوز تمكنت الشيخوخة منه فأصبح يسير منحني .

و نحن حسب التعليقات التي نسمعها عن حالة أتوبيساتنا .. نشبهها بعلبة السردين .. و لعلنا نظلم علبه السردين بهذا الوصف .. فالعلبة السردين فيها منظم .. ولم نر في حياتنا سردينة واحدة تطل برأسها خارج العلبة ..

وسوف نسأل أنفسنا لماذا لا تزيد الهيئة على الخطوط المزدحمة أتوبيسات إضافية .. و تسارع أنت دفاعا عن الهيئة .. و أين تسير هذه الأوتوبيسات ، و قد أصبحت الشوارع من الازدحام مختنقة ، لا نستطيع السير فيها . و خصوصا أن على الجانب الأيمن و الأيسر أيضا من الشارع قد وقفت السيارات متلاصقة ، وأصبحت كأنها حجاب يحجب الرصيف عن مشاهدة الشارع ، و يضطر قائد الأتوبيس إلى الوقوف في نهر الطريق ، حتى ينزل من ينزل ، و يصعد من يصعد بعد عناء كبير في اجتياز تلك الأجساد المتلاصقة المتلاحمة ، و كأنها تعلن عن بقائها وحدة واحدة لا تتجزأ .

و سوف نسأل أيضا – و السؤال ليس عليه ضريبة – لماذا هذه الأتوبيسات الطويلة العريضة ، وخصوصا أن شوارعنا لم تعد تحتمل هذه الأحجام الكبيرة .. طيب زمان كان الرجل يحب في المرأة هذا الوزن الزائد من اللحم الذي يتدلى من جميع الجوانب .. و لكننا الآن .. و شبابنا على الخصوص يبحث عن المرأة الرشيقة النحيفة التي تختفي منها الدهون و الشحوم .. فلماذا لا تأتي الهيئة بما نعرف باسم الميني باص .. فهو صغير الحجم .. و ممكن أن نفكه باثنين منه أتوبيس كبير ..

و أتذكر حين نزل الميني باص في شوارعنا ، كان يركب العدد المسموح فقط ، و لا زيادة في عدد الركاب .. واستبشرنا خيرا ، و لكن مضى ذلك العهد ، أصبح الميني باص مثل أخوه الكبير .. يزدحم بالركاب .. و تقول هذه ثقافة قد تعودنا عليها فنحن شعب يحب العشرة .. ولا تفرط في بعضنا ، و نحب التلاحم في كل شيء .. في الأفراح ، في المأتم .. فلماذا لا يكون هذا التلاحم أبديا .

في العبارات التي تنقل الحجاج من مصر إلى السعودية و بالعكس ، و في العبارات التي تنقل الركاب من الأردن إلى مصر و العكس .. سنجد هذه الظاهرة ، ظاهرة التلاحم الجسدي .. ستجد عبارة بالإنجليزي تقول " إن دك " و ترجمها كما تشاء

.. و هي تعني السطح أو تعني الجوانب المفتوحة في العبارة ، و لا أجد لها تفسيرا آخر .. عدد المقاعد لا يكفي لعدد الركاب ، فيكون الوضع كالآتي : ينام من يريد النوم .. و يجلس على الأرض من يريد أن يجلس .. ويقف البعض على سور العبارة متأملا البحر ، متذكرا أغنية فيروز الشهيرة " شايف البحر شو كبير .. كبر البحر بحبك " .

وأعود – مع الاعتذار طبعا – إلى حديثنا الأساسي عن السارق والمسروق ، أو النشال و المنشول باللهجة المصرية ، و ليس باللهجة الخليجية .

و يدور سؤال غريب في ذهني ، و أنا أعتقد أن هذا السؤال يدل على الغباء ، لماذا لا يسرق هذا النشال النتن الذي يسرق الغلابة .. لماذا لا يسرق أصحاب السيارات الفارهة ؟ و كيف يسرق هؤلاء و هم محصنون داخل عرباتهم .

حرية رأي

بين الفنية و الأخرى ينبح صوت من الغرب بمهاجمة رسولنا الكريم – ρ- و تقوم القيامة الشعبية العربية و الإسلامية مطالبة بالاعتذار أو المقاطعة للبضائع للدولة التي صدر منها هذا الهجوم .. و بخجل تقوم الخارجية في الدول العربية و الإسلامية

بتقديم مذكرة احتجاج لدى هذه الدولة .. و يكون الرأي أقبح من الذنب .. هذه حرية رأي ..

و الجميع يعرف أن حرية الرأي ، والتعبير عن الأفكار والآراء عن طريق الكلام أو الكتابة أو عمل فني بدون رقابة ، أو قيود حكومية بشرط أن لا يمثل طريقة ومضمون الأفكار أو الآراء ما يمكن اعتباره خرقاً لقوانين وأعراف الدولة أو المجموعة التي سمحت بحرية التعبير ويصاحب حرية الرأي والتعبير على الأغلب بعض أنواع الحقوق والحدود مثل حق حرية العبادة وحرية الصحافة وحرية التظاهرات السلمية.

و من هنا نجد أن حرية الرأي لها حدود .. ونحن نجد في حياتنا العادية من يتعدى برأيه على شخصية ما .. فيسارع الآخر إلى رفع قضية عليه بالسب و القذف .. فما بالك أن كان هذا الهجوم أو الرسم الكاريكاتيري يسئ إلى أعظم شخصية في الوجود .

و نجد أن هذه الشخصية المهاجمة قد ملأ قلبها الحقد و الكراهية ، و إنها تريد الشهرة بأي طريقة ..

و قد يقف رجلا آخر يدافع عن الرسول الكريم -ρ ، فيهاجم المسيح عليه السلام ، و نحن نعرف أن ذلك حسب الشريعة الإسلامية كفر بين .. لأن الإسلام يدعونا إلى الإيمان بالله و رسوله و رسله و كتبه .

و لنذكر في هذا الحيز بعض النماذج لم يدعونه بحرية الرأي و التعبير ،لنرى النتائج التي ترتب على هذا الرأي ..

رواية آيات شيطانية للروائي البريطاني سلمان رشدي : الشخصيتين الرئيسيتين في الرواية هما صلاح الدين جمجة الذي هو هندي عاش منذ صغره في المملكة المتحدة وانسجم مع المجتمع الغربي وتنكر لأصوله الهندية ، وجبرائيل فريشته الذي هو ممثل هندي متخصص بالأفلام الدينية وقد فقد إيمانه بالدين بعد إصابته بمرض خطير حيث لم تنفعه دعواته شيئا للشفاء حيث

يجلس الاثنان علي مقعدين متجاورين في الطائرة المسافرة من بومبي إلى لندن ولكن الطائرة تتفجر وتسقط نتيجة عمل تخريبي من قبل جماعات متطرفة وأثناء سقوط هاتين الشخصيتين يحصل تغييرات في هيئتهم فيتحول صلاح الدين جمجة إلى مخلوق شبيه بالشيطان وجبرائيل فريشته إلى مخلوق شبيه بالملاك. في أحد أحلام جبرائيل فرشته يرجع بنا سلمان رشدي إلى فترة صلح الحديبية ويبدأ فصل من الرواية بعنوان ماهوند

وهذا الفصل من الرواية جرحت مشاعر المسلمين بصورة عميقة حيث يستند فصل في الرواية على رواية اجمع علماء المسلمين على عدم صحتها وهي الرواية التي وردت في سيرة الرسول حسب ابن إسحاق وفيها يذكر ابن إسحاق أن الرسول وأثناء نزول سورة النجم عليه همس له الشيطان بهذه الكلمات "تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى" والآيات المقصودة هنا هي الآيات 18 و 19 من سورة النجم .

وحسب الرواية فانه هنا همس الشيطان بهذه الكلمات "تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى" وهذا يعني انه تم ذكر تلك الأصنام بخير في القرآن وفي هذا إشارة على أن الرسول حاول بطريقة أو بأخرى تقليل معاداة أهل مكة لدعوته وكف الأذى عن أتباعه بذكر آلهة مكة بخير حيث يزعم البعض انه بعد هذه الحادثة ساد الوئام بين الرسول محمد ومعارضيه السابقين من أهل مكة حتى بلغ الأمر أن بعض المسلمين الذين كانوا مهاجرين إلى الحبشة هربا من قمع أهل مكة قد قرروا الرجوع .

هذه الرواية أحد الحلقات في سلسلة تاريخ الإساءة إلى شخصية الرسول محمد - ρ. .

و من العجب أن حرية التعبير لم تترك شخصية المسيح عيسى ابن مريم ، فقد صور في العديد من الأفلام التي لاقت احتجاجا واسعا من الدولة أو من العامة .

رواية "آخر وسوسة " التي طبعت عام 1960 وكانت للمؤلف اليوناني نيكوس كازانتزاكس(توفي سنة 1957) وتحولت فيما بعد إلى فيلم سينمائي في عام 1988 .

وفيه يسرد المؤلف حياة المسيح .. وفيه يصور المسيح كنجار يصنع الصليب الذي كان الرومانيون يستعملونه لإنزال العقاب بالمخالفين للقوانين .. ويصور أيضا شخصية المسيح كإنسان عادي يملك كل الصفات الإنسانية من شك وضعف وخوف وارتكاب للذنوب وفي نهاية الرواية يتزوج المسيح من مريم المجدلية بدلا من صلبه كما هو معهود حسب الكتاب المقدس

بدأت الاحتجاجات على الفيلم أثناء عملية التصوير حيث قاد الزعماء الدينيون في الكنائس الأمريكية حملة واسعة ضد الفيلم وقامت مجموعة مسيحية متطرفة بإلقاء القنابل الزجاجية الحارقة على صالة عرض للفيلم في باريس في 22 أكتوبر 1988.

فيلم حياة برايان (في سنة 1979) و يروي الفيلم وبصورة ساخرة قصة حياة شخص اسمه برايان ولد في نفس اللحظة ، ونفس الزقاق الذي ولد فيه المسيح والفيلم ينتقد وبصورة ساخرة التطرف الديني.

تتكرر في الفيلم سلسلة من المواقف الكوميدية بسبب اشتباه الناس أن برايان هو المسيح بدءا من زيارة الحكماء الثلاث الذين وحسب التقليد المسيحي تتبعوا النجوم واستدلوا على مكان ولادة المسيح إلى حادثة الصلب حيث يوضع برايان على الصليب بدلا من المسيح.

امتنعت بعض صالات عرض الأفلام من عرض هذا الفيلم في العديد من المدن البريطانية ومنعت ايرلندا والنرويج وإيطاليا وولاية نيو جيرسي في الولايات المتحدة عرض الفيلم لسنوات طويلة.

لوحة الفنان الأمريكي اندريس سيررانو في عام 1987 والمسمى" البول على المسيح Piss Christ "واللوحة عبارة عن صورة لصلب المسيح قام الرسام بغمسها في بوله الشخصي ويعتقد البعض أن اللوحة قد غمست في دم الفنان أيضا لكون اللوحة حمراء اللون.

أحدثت هذه اللوحة جدلا كبيرا في مجلس الشيوخ الأمريكي في عام 1987 وكان الجدل بين حرية الفنان في التعبير عن رأيه وعن الإساءة للرموز الدينية.

وكان الهدف من اللوحة المثيرة للجدل حسب رأي الفنان هو "إظهار الطابع الإنساني للمسيح" وترابط المسيح مع الإنسان البسيط "الذي يقوم يوميا بعملية البول" إلا أن المعارضين اعتبروا هذه اللوحة إهانة شخصية للمسيح.

فيلم الخضوع للمخرج الهولندي ثيو فان جوخ الذي قتل في 2 نوفمبر 2004 على يد محمد بويري الدانماركي من أصل مغربي لإخراجه هذا الفيلم القصير(10 دقائق) .

و الفيلم يصور سوء معاملة المرأة في الإسلام وربطه بنصوص من القرآن .وكان سيناريو الفيلم مكتوبا من قبل " آيان حرصي علي " عضوة البرلمان في هولندا وهي من مواليد الصومال التي حاولت أن تنقل فكرة مفادها أن المرأة في العالم الإسلامي معرضة للجلد إذا أقامت علاقة بصورة ما خارج إطار الزواج، الاغتصاب من قبل أفراد العائلة وعدم جواز مناقشة ذلك بسبب قوامة الرجل على المرأة. وإجبارها على الزواج من الرجال المسلمين الذين تفوح رائحتهم والذين يقومون بضربهم بناء على تعليمات القرآن. وتم ربط المشاهد بآيات من القرآن ويظهر في الفيلم أربعة نساء شبه عاريات وقد كتب على أجسادهن آيات من القرآن .

بعد عرض الفيلم تلقى ثيو فان جوخ العديد من رسائل التهديد ولكنه رفض أن يأخذها بمحمل الجد ورفض أي نوع من

الحماية إلى أن تم أطلاق 8 رصاصات عليه في 2 نوفمبر 2004 في أمستردام وتم قطع رقبته وطعنه في الصدر من قبل على محمد بويري الهولندي من أصل مغربي . وقام بويري بوضع بيان من 5 صفحات على الجثة وفي البيان تهديد للحكومات الغربية واليهود وآيان حرصي علي كاتبة السيناريو.

وأدت هذه الحادثة إلى ضجة كبيرة ومناقشات حادة حول مصير أكثر من مليون مسلم في هولندا وبدأت بعض المنظمات تحذر مما أسمته "المد الإسلامي" في هولندا وكيف أن نسبة الولادة بين المسلمين هي أعلى من نسب غير المسلمين مما سيؤدي حسب تعبير تلك المنظمات إلى "جعل المواطنين الأصليين أقلية في المستقبل."

مسرحية" بيهزتي "التي تعني باللغة البنجابية العار وحبكة المسرحية عبارة عن الجنس والقتل في معبد لأتباع الديانة السيخية .والمسرحية من تأليف الكاتب البريطاني من أصول سيخية كوربريت بهاتي

وأحدثت المسرحية ضجة كبيرة في ديسمبر 2004 في ليلة الافتتاح نتيجة لاحتجاج أتباع الديانة السيخية وكان الاحتجاج لمشاهد في المسرحية تصور حادثة اغتصاب وقتل في أحد المعابد السيخية وتم إلغاء العرض .

فيلم' دوغما 'من إنتاج سنة 1999 وهو فيلم كوميدي عن الكنيسة الكاثوليكية وقد أدى هذا الفيلم إلى العديد من الاحتجاجات المنظمة في العديد من الدول وتهديدات لقتل المخرج كيفن سمث ويتحدث الفيلم عن ملاكين عاقباهما الخالق بالبقاء للأبد في ولاية وسكونسن .

الفكرة الرئيسية في الفيلم هو انه يجب التمييز بين الإيمان بدين معين والعقيدة الدينية التي يمكن تعريفها بالاعتقاد بان أي نص ديني مكتوب من قبل ما يعتبره أتباع ديانة معينة خالق الكون يجب أن يطبق بحذافيره. وينتقد الفيلم استعمال الدين لتبرير العنف

والعنصرية وعقوبة الأفراد لسبب ميولهم الجنسية والفيلم يحاول أن يقول بان "الفردوس هو للجميع وليس حكرا على دين معين" وإذا كان الشخص" طيبا" فانه سيدخل الفردوس بغض النظر عن دينه وعرقه وميوله الجنسية.

ذلك قليل من كثير .. فكرة مهاجمة الأديان و أنبيائها .. و لعلك تلمح معي أن ما نشر يمس الإسلام و المسيحية على وجه الخصوص ، و لا يقترب من اليهودية إطلاقا ..

أقولها بصراحة لمن خرجوا برأي غريب .. أنها امتداد للحروب الصليبية في صورة عصرية .. لا .. و ألف لا .. هذه ليست حرب صليبية ، و إنما هي حرب من نوع آخر .. حرب ماسونية يبثها الفكر الصهيوني للوقيعة بين المسيحيين و المسلمين .. ليصلوا إلى هدفهم الأسمى و هي هدم الأديان و سيطرة الطقوس الماسونية .

انظروا جيدا .. فالفكر الماسوني الصهيوني بدأ ينتشر ، و أصبح في كل دولة محفل ماسوني ، تقام فيه شعائرهم .. في كل الدول دون تفريق حتى العربية منها ، و هم يستقطبون المفكرين لينوبوا عنهم في نشر أفكارهم الهدامة من خلال الأفلام أو المسرحيات أو الرسوم الكاريكاتيرية .. الخ ..

فإذا كنا نريد أن نرد الإساءة بمثلها .. فليكن ، و بنفس الأسلوب ، و لكن ليس عن الشخصيات و الرموز الدينية ، أو المعتقدات الدينية ، و لكن عن طريق فضح أساليبهم الماسونية الصهيونية .

الحب

الحب تلك الكلمة السحرية التي أبدع في وصفها الكتاب و الفلاسفة والشعراء ، و ظهرت الكتب تلو الكتب تبين العلاقة بين الإنسان و أخيه الإنسان .. بين الرجل و المرأة ، ثم بين أفراد الأسرة الواحدة . و بين الأسر بعضها البعض .

و على سبيل المثال تجد أن كتاب " طوق الحمامة في الألفة والإلاف "هو كتاب لابن حزم الأندلسي وصف بأنه أدق ما كتب العرب في دراسة الحب ومظاهره وأسباب .. و غيره من الكتب التي تتناول هذه العلاقة الإنسانية التي نصت عليها جميع الأديان السماوية ..

و قصص الحب لا تكاد تنتهي .. في أي زمن ..أو مكان .. فقد خلد لنا الشعر الكثير من المحبين ، وذكر اسم الشاعر و محبوبته.. و أخبار عنهما .. وعن النجاح أو الفشل في هذا الحب .. كقيس و ليلي ، و جميل و لبنى .. و نلمح ذلك في الأدب الأجنبي كذلك ، فقد خلد شكسبير في رائعته .. روميو وجولييت .. أسمى مشاعر الحب .. و التضحية بالنفس من أجله .

أبدع مؤلفو القصص في تناول الحب ، طاهرا كان أو غيره .. فظهر في أدبنا الكثير و الكثير من الأعمال التي تشيد بالحب ..

و لعلك تذكر أنه في الزمن الجميل .. تغنى الفنانون الكبار و الشعراء العظام ، و أجادت قريحتهم بوصف معاني الحب الجميلة ، أو العذابات التي يعاني منها المحيون ، و اسمع إلى سيدة الغناء العربي أم كلثوم ، و هي تشدو بحنجرتها الذهبية .. أنت الحب ، سيرة الحب .. هذه ليلتي .. أنت عمري .. الخ .. ، و أضف إليها مطربو الزمن الجميل .. عبد الوهاب .. و عبد الحليم .. و نجاة الصغيرة .. و فايزة أحمد .. ثم زد من هؤلاء العظام فيروز ، و ميادة الحناوي .. الخ .. تجلس ساعات الليل ، وقد سرح فكرك ، و انقلب حالك .

ثم مضى الزمن الجميل .. و ظهر مطربون يغنون للحب ، ولكن على طريقة العصر الحديث الذي تغير فيه شكل كل شيء .. ، فتسمع الكلمات التي تقف على أبواب أذنيك .. و كأنها أحجار ستقذف بك إلى قرار الجحيم .. أو تجد نفسك على استعداد لمعركة

مع عدو تحبه .. " طب سيب و أنا أسيب " الباشا أحمد عدوية .. " نزل إيديك تحت " .. " قوم أقف و أنت بتكلمني " .. الخ ..

تغير الحب .. وتغير أسلوب الحب .. كنا زمان نجلس على الشط النيل نتناجى بالكلمات الجميلة اللطيفة العذبة، زوج وزوجة .. شاب و شابة .. نسير في الحدائق نستلهم منها و من أزهارها ، و أشجارها الكلمات الرقيقة العذبة ، نسمع صوت أم كلثوم و هي تشدو في الراديو المعلق على عربة تبيع حمص الشام ، أو الترمس ، أو الذرة المشوي ، أو الشاي ، أو الكازوزة .. " طول عمري بخاف من الحب ، وظلم الحب لكل أصحابه " ، نسير في بعض الشوارع ، و نحن نتلفت حولنا لكي لا يلمحنا رفيق ، أو أحد من الأهل .. و غالبا ما يترجم هذا الحب إلى الزواج .. أو الفراق .

و الآن أذهب إلى نفس الأماكن .. و أغلب هذه الأماكن قد اختفى لعمل كازينو ، أو نادي .. ماذا ترى .. اثنين جالسين دون خوف يتحدثان .. يبدو صوتهما و قد ارتفع .. بين كلمات للحب جوفاء الخالية من الإحساس الجميل .. أو عتاب أن كل منهما قد شاهد الآخر ، و هو يسير مع غيره .. و قد تسمع في النهاية .. متى تتقدم إلى أبي .. و كأنها تردد أغنية لأم كلثوم لا تعرفها .. إنما للصبر حدود .

زمان كان الحب ينتهي إلى الزواج .. و إذا ارتبط الاثنين بالزواج .. فإن الزواج يستمر إلى أن يفرق بينهما هادم الجماعات ، ومفرق اللذات .. و لا أقول لك أنه لم تكن هناك مشاكل أسرية ،بل كانت هناك كثير من المشاكل ، كان الحب يتغلب عليها دائم . و فكرة الطلاق كانت غالبا من رابع المستحيلات .

الآن إذا ما انتهى الحب بالزواج ، و غالبا لا يحدث .. و مع بداية المشاكل ، و ظهور الوجوه على حقيقتها ، بعد نزع الأقنعة التي تزيف الوجوه . يشتد الخلاف ، و يقع ما لا يحمد عقباه .

زمان كانت الأسرة متماسكة .. الأب .. رجل بمعنى الكلمة يفرض سيطرته بالحب في أغلب الأحيان.. و القوة في أضيق الأوقات (سي السيد) .. و الأم كانت تعمل جاهدة على تنشئة أشبالها على الطاعة و الاحترام ، الجد و الاجتهاد بصبر و ثبات .. و العلاقات بين الأخوة على أحسن وجه ، فلا تكاد تسمع عن أخ خاصم أخيه ، و إن حصل فكانت قوات التدخل السريع تحاصر المشكلة في مهدها ، و يتفق الوفاق بين الطرفين ..

الآن .. ماذا حدث .. الرجل في البيت وجوده كعدمه ، لا شخصية .. لا حب .. من يسمع كلامه .. كل ما عليه أن يسدد ما عليه .. و ما عليه كثير .. وإذا ما اشتكى أو تبرم ، أو ارتفع صوته قليلا .. نشبت الحرب ، و انقسم البيت إلى فريقين ،فريق مع الأب ، وفريق مع الأم ، و غالبا ما يكون فريق الأم هو الأقوى .. و تبدأ المعركة .. و البحث عن الفائز أو المهزوم صعب .. و التعادل نتيجة لا ترضي أي طرف من الفريقين .. و لا مشجعيه .. أما ألأولاد فهم في واحد آخر يهيمون . المهم مكاسبهم التي سوف ينالونها بعد انتهاء المعركة .

زمان كانت العلاقة بين الجيران علاقة ترابط و مودة و رحمة .. لا تشعر أن هناك فرق بين الجار و الجار ، إلا حينما يهجعون في الليل إلى بيوتهم .. أما عدا ذلك فهم أهل و أخوة .. لا فرق بين غني أو فقير .. لا فرق بين مسلم أو مسيحي أو يهودي .. الكل سواسية ..

الآن ..ماذا حدث .. غلقت الأبواب (بضم الغين) .. و أصبح كل جار في شأن يغنيه .. ويكاد الجار لا يعرف جاره .. أما في الأحياء الشعبية .. فنجد الحال بالفعل قد اختلف .. ما إن تدب مشكلة ، حتى و لو كانت بسيطة ، بسبب الأطفال غالبا . أو غيرها من الأسباب التافهة حتى تجد ما لا يحمد عقباه .. خرجت قواميس اللغة البذيئة من مخابئها .. و انطلقت الألسن في قذف الكلمات أشدها سواء و إيلاما على الأذن التي أصبحت لا تعرف الحساسية من الكلمات البذيئة ، ونشطت القريحة في

البحث عن المفردات الشبه منسية . و تبدو خصومة بين الاثنين و مشجعيهم ، عداوة لا يمكن إصلاحها .

أتذكر و أنا صغير خرجت مع أبي .. إلى عمله .. و فجأة ودون سابق إنذار لثمت سيارة سيارتنا من الخلف . ووقف الاثنين .. نظر أبي إلى سيارة الرجل ، وكذلك فعل الرجل ، و في وجه أبي عتاب إلى الرجل .. و حاول الرجل أن يسترضي أبي بكلمات رقيقة ، طالبا منه أن يصلحها له .. و لكن النخوة المصرية أبت أن تأخذ العوض ، و رغم أن الشرطي جاء .. إلا أن الحدث انتهى وافترق الاثنين على خير .

و أقف معك بعد أن مضت السنين .. و قد رأيت هذا الحادث بأم عيني .. سيارة خبطت سيارة أخرى .. نزل السائق و السائقة .. و كانت السائقة غلطانة .. و نظرت إلى الرجل شزرا ، و قالت له بعصبية : لماذا تقف فجأة .. إن كنت لا تعرف السواقة ، فأفضل لك أن تسير على الرصيف يا (...) .. و انبرى السائق في التنديد بها .. و أنها لا تعرف السواقة ، و إن بابا المحترم أو ماما المهذبة قد اشتريا لها السيارة ، و لهذا فهي مستهترة .. ألخ .. ووصل الشرطي محاولا أن ينهي النزاع ، بكل ما يعرف من طرق .. إلا أنه ناله من الحب جانب .

أقول لك أن هناك فرق بين الحب زمان .. و الحب الآن ..

أنت و أنا لا نعرف أن هناك فرق في فكرة الحب كحب ، أو معناه ، أو قانونه .. نعلم ذلك علم اليقين أنه لن يكون هناك تغيير .. و لكن التغيير الذي يحدث فينا نحن .. لقد أصبحت ثقافة العصر المضطربة .. أصبحت ظروف الحياة الصعبة ، أصبحت المساواة بمفهومها الضيق تشغل بالنا شغلا دائما، و تحتل تفكيرنا احتلال المستعمر لقدرات الأرض التي يحتلها .. أولا العمل .. ثانيا الإحساس بالأمن و الأمن .. ثالثا الخوف من الغد المجهول.. رابعا .. و خامسا ..

الحب كفكرة لن يتغير .. و لكن الشعور بالغربة و الاغتراب جعل القلق يسيطر على النفس البشرية .. فأصبح الحب يحتل أدنى المراتب ، و أصبح الصراع مع الحياة يحتل أرقى المواقع في تفكيرنا .

نهر النيل

التاريخ المصري لنهر النيل يدل على عظمته في أعين المصريين ، فحتى وقت قصير كان المصريون يحتفلون بفيضان النيل ، و هي بدعة فرعونية ، كانت بسببها تذهب روح فتاة في كل عام .

وصف هيرودتس اليوناني مصر وصفا جيدا بالرغم من أنه كان لا يعرف اللغة المصرية القديمة .. ووصف النيل فجعل " مصر هبة النيل " .

كان النيل يطلق عليه لفظ حابي باللغة النوبية القديمة ، و أطلق عليه اليونانيون القدماء لفظ النيل نسبة إلى إله الأنهار نيلوس .

و من عظمة النيل أن الملك رمسيس الثاني كان يحتفل به مرتين الأولى في نهاية شهر مايو حيث كان يعتقد أن الفيضان يبدأ في منبعه في ذلك الوقت ، و العيد الثاني في 4 أغسطس حيث يصل الفيضان إلى أدفو .

و في عهد الملكة حتشبسوت رسم بطليموس (اليوناني الأصل) خريطة للنيل حتى مدينة مروي .

حتى الأدب المصري قد وضع النيل نصب عينيه .. و لا ننسى الأغاني العظيمة التي تشيد بهذا النيل ، و الشعراء العظام الذين تغنوا بهذا النهر العظيم كأحمد شوقي بك .

كلام جميل جدا ، أن نجد هذا الاهتمام بالنيل ، و حتى وقت قريب كان المصريون يفكرون في الماء الفائض الذي يذهب إلى البحر ، فبنى محمد علي القناطر الخيرية ليخفف من هذا الهدر ، و في عهد الثورة المصرية بنى جمال عبد الناصر السد العالي ، و أنشأ خلفه بحيرة مازالت تسمى باسمه ، وهي بحيرة ناصر .. و كان الهدف بجانب الهدر الهائل للمياه ، بالإضافة إلى استخدام المياه في توليد الكهرباء .

و في زحمة الحياة نسى المصريون هذا النيل العظيم ، و تدخلت إسرائيل (كالعادة) بما ليس لها ، لدى بعض الدول العشر التي تستخدم هذا النهر بمسمياته المتعددة .. و تبين أن الاتفاقيات السابقة تظلم هذه الدول ظلما بينا ، و تبدأ حرب المياه .

و أظن أن هذا الموضوع يدخل في صميم أعمال الدولة ، و لهذا فأنا سأتجه وجهة أخرى ، و هو استخدامنا للمياه ، أو استخدامنا للنهر ، ومدى استفادتنا به .. فنحن نستفيد من هذا النهر في الزراعة ، و نحن نستفيد من هذا النهر أيضا في الشرب ، و نحن نستفيد من هذا النهر مرة ثالثة في توليد الكهرباء ، ومرة رابعة في التجارة و نقل البضائع .. و تزيد الاستفادة مع تقدم حياة الإنسان في مصر ، ومع وجود رأس المال للمشروعات المفيدة ، فنحن نستخدمه في التنزه و السياحة ، و الجلوس على شاطئه أو على كازينو .

نجن الآن أصبحنا أعداء لهذا النهر العظيم ، لا تستغرب ، أعداء لكل ما يعطينا من خيرات وفيرة ، و أصحاب هذا العداء هم الانتهازيون التي يريدون استخراج ما في الجيوب ليكونوا ثروات لهم .

ارتفعت البنايات الشاهقة أمام النيل في كل المحافظات تقريبا ، وزاحمتها المصانع ، و أصبح النيل مستودعا طبيعيا للنفايات الحية و الميتة .. لا فرق بينهما .. مما يعرض النهر العظيم و مياهه للتلوث .

و تلوث الماء ، ماء النهر ، لاشك سيؤثر على الزراعة من ناحية ، ومياه الشرب من ناحية أخرى .

و إذا كان ذلك أمام النيل ، و يفصل بينهما شارع قد ازدحم بالسيارات بحيث لا نعرف الفرق بين الليل و النهار .

و العجيبة الثانية التي تفسد جمال هذا النهر العظيم ، هي تلك المنشآت التي تقع على ضفة النهر ، بحيث أصبحت في أماكن معينة لا ترى النهر إلا إذا دخلت تلك الأماكن .. كازينو .. نادي .. عوامة .. مشتل .. مطعم .. الخ .. بعضها الدخول لأعضائه المشتركين فقط .. و بعضها لمن يملك المال .. لمن يريد أن يجلس فيها .

و العجيبة الثالثة تكون في الأماكن المفتوحة ، فقد أصبح النهر في هذه الأماكن مراحيض عمومية ، يقضي فيها الناس حاجاتهم . و تزاحم الروائح الكريهة نسمات الهواء العليلة .

و العجائب تتعدد و تتنوع حتى تتخطى لوحدها عجائب الدنيا السبع ، و أنت بلا شك ترى و تشاهد إذا أتعسك الحظ ،وقررت أن تسير على شاطئه البديع متنزها ، أو حالما .

الشحاتون في المحروسة

قال الله تعالى : " و أما السائل فلا تنهر "

صدق الله العظيم .

بعد غيبة طويلة رجعت إلى مصر يملئني الشوق و الحنين إلى رؤية بلدي الحبيب إلى النفس ، و خلال الطريق من المطار إلى بيتي .. و خلال زحمة الطريق العجيبة الغريبة ، و خلال الإشارات المتعددة .. لمحت ظاهرة أشد غرابة ، ألا و هي كثرة الشحاذون في كل إشارة .

و تذكرت أيام زمان .. كان الشحات يرتدي جلبابا وبه بعض اللطع الملونة ، وكان يمر في أماكن شبه محددة ، يترزق ما عباد الله الصالحين ، بل كنت أرى أبي – رحمه الله – يعطي أناس معينين يمرون عليه كل أسبوع بعض ما تجود به نفسه .

و تذكرت كذلك ذلك الرجل المجذوب الذي كان يحمل البخور ، ويبخر المحلات ، و يأخذ ما قسم الله له ، مع دعوة لك بالرزق الوفير .

و تذكرت أيضا فيلم قد شاهدته يحكي قصة هؤلاء الشحاتين ، قد يكون اسمه " إضراب الشحاتين " .

و تذكرت أيضا ما حدث حينما توفي أحد الشحاذين ، و جاءت الأخبار أنه كان يملك كذا و كذا .. و قد وجد ذلك في حجرته . و كتب الخبر في الجريدة في اليوم التالي ..

و أخذ سائق التاكسي يحكي لي الحكايات عن هؤلاء الشحاتين ، قائلا : إنها الآن أصبحت مهنة كأي مهنة .. يشتعل فيها الصغار ، مثل الكبار ، كله رجال و نساء و أطفال .. و أن النسوة بالذات يستأجرن الأطفال الصغار لتكون الحسنة أكبر .. و أن هؤلاء الشحاذين يبتدعون من الأساليب ما يعجز الإنسان عن تصوره .. دعك من هؤلاء الذين يبيعون المناديل في الشارع ، وهم أطفال ، و دعك من الأطفال الذين يقفون بجانب سيارتك ليطلبوا هذه الحسنة .. المهنة تطورت .. رجل أو سيدة بملابس أنيقة يستأذنك في كلمة ، و يحكي لك أنه قد تعرض إلى السرقة ،و أنه يريد أن يعود إلى بلده .. و أخر يدعي المرض و يقدم لك

روشتة ، و يطلب منك ثمن الدواء .. و ثالث .. ورابع .. و أحسست ساعتها أن الرجل يبالغ فيما يقول .

و انتهت رحلتي لأعود إلى البيت .. ومرت الأيام الأولى بين استقبال المهنئين بسلامة العودة ، و أنهم يتمنون لي السعادة في مصر .

خرجت إلى الشارع بعد عدة أيام .. لأداء الصلاة في مسجد الحي ، هالني ما رأيت ، و أحزنني بالفعل .. على باب المسجد جلست بعض النسوة ، و الدعاء سابق للحسنة .. و ما إن أخرجت من جيبي بعض النقود حتى التف حولي بعض الصبية يطلبون الحسنة ، و سحبني أحد الأصدقاء من هذا الحصار .. و قال لي ضاحكا : لا تخرج فلوسك بعد الآن ، أمام المسجد و تعطي أي سائل .

وحمدت الله إنني خرجت من هذا الموقف بسلام ، و لكني لم أكد أسير بضع خطوات حتى تجمدت في مكاني ، امرأة تحمل طفلا ، و تمسك بآخر الذي يمسك بآخر ، ومن خلفها رجل .. ظننت أول الأمر أنه ليس معها ، ولكنه مد يده ليأخذ ما كنت أريد أن أعطيه للمرأة .. فسحبت يدي ، ورددت نقودي ، وخصوصا أن الرجل كان عريض المنكبين ، ضخم الجثة .

و ضحك صديقي ، و قال معلقا : لقد أصبحت الشحاتة مهنة .. أي إنسان الآن يمد يده طلبا للمساعدة .. و تصور أن صحفي ، وقف مرة ليغطي هذه الظاهرة ، و ظل لعدة أيام يرى هؤلاء ، ويصورهم ، ثم أخيرا جرب أن يكون واحدا منهم .. وبالفعل فعلها .. و استطاع أن يكسب الآلاف في عدة أيام .

و عدت إلى بعض الذكريات ، و لكن هذه المرة ليس في مصر المحروسة ، في المملكة المتحدة ، تجد بعض الشحاتين ، وهو لا يمد يده لك ، و لكن يضع برنيطة أمامه ، و قد يعزف أو يرسم .. و لكن الوضع في هذه البلاد يختلف ، فهناك أماكن تتطوع بمبيت هؤلاء الذين يبتون في الشارع ، و بعض الجمعيات

تقدم لهم الطعام ، ورغم ذلك فإنه يكسب على الأقل مائتين جنيه إسترليني في اليوم الواحد .

و ضحكت فجأة حين تذكرت فيلم عادل إمام " المتسول " و هو يقف في مكان فخم و يقول لمن يعطيه " نو دولار ، اجيبشن بوند " .

و عدت إلى ذكرياتي ، و أنا أودي فريضة الحج ، لأجد المسجد الحرام العديد من الشحاذين السمر يتسولون . و كذا في كل بلاد الدنيا هناك متسولين ، و ليس الأمر مقتصر على مصر .

و لكني لم أقنع بهذا التفسير .. لماذا أصبح التسول بهذه الصورة الكبيرة .. أنت ستجد في كل شارع و أنت تسير ، و أنت تركب سيارتك هؤلاء المرتزقة الذين يمدون أيديهم ، البعض يعطيهم ، و البعض ينهرنهم ، و البعض يمضي في طريقه غير مبال ..

ستحزن أشد الحزن و أنت تجد هذا الكم الهائل من الشعب يمد يده ، هل وصل الحال إلى ذلك الوضع .

قد يكون السبب ارتفاع الأسعار الدائم بسبب دون سبب . و الأجور الضعيفة الهزيلة التي تنفذ قبل أن تدخل الجيوب ، و كأنها هذا الجيب عدو لها .

و فجأة و دون سابق إنذار وجدت بعض الصبية الذين يلحون في السؤال .. قد أطلقوا أرجلهم للريح ، و أخذوا يعدون ، ووجدت الشارع قد خلا منهم ، و السبب بسيط فقد حضرت الشرطة ، و تم القبض على بعض المتسولين أولاد الشوارع ..

قال الضابط : هؤلاء حرامية .. يسرقون الناس ، و يحتالون عليهم .

كان الله في عونك يا مصر .

شكوى

نحن نشتكي من كل شيء ، قد تكون الشكوى فردية أو جماعية ، الاثنان واحد ، و لكن الشكوى الجماعية أكثر و أعمق .

نشتكي – و لا مجيب – من انقطاع الكهرباء المستمر الذي يخرب كل شيء في البيت ، وخصوصا الثلاجات و ما فيها

من أغذية مجمدة تموين الشهر .. لأن الكهرباء تقطع بالساعات دون سابق إنذار .

نشتكي من مياه الشرب التي تقطع في كثير من المناطق ليوم أو يومين ، و في أماكن أخرى نشتكي من تحالف مياه الشرب مع مياه المجاري في وحدة واحدة مكونة مزيجا يضيف إلى أمرضنا أمراض جديدة .

نشتكي من تلك البيوت القديمة أو الحديثة التي تنهار فجأة على رؤوسنا ، لسبب بسيط أن مالكوها و مقاولها ، قد نسوا ضميرهم أو وضعوه في الثلاجة . .

نشتكي من الشوارع وما فيها من حفريات و مطبات و قمامة وزحمة سير . و من تلك السيارات التي عفا عليها الزمن ، و أصبحت مثلنا تسعل سعالا مميتا من العادم الأسود أو الأبيض التي يصدر منها ، من أصحاب سيارات الأجرة الذين يحاولون إثبات مهاراتهم في الزحمة ، و يحاورون السيارات الأخرى و كأنه الشارع ملعب كرة قدم . و من تلك الأصوات المزعجة من زمور السيارات الذي ينطلق بسبب أو بدون سبب ، صباحا و مساء و ليلا و فجرا .

نشتكي من الدروس الخصوصية التي أصبحت بديلا عن المدرسة ، و الامتحانات وصعوبتها حينما يمتحن أبنائنا ، و يجمعون على صعوبة هذه المادة ، و نشتكي من مكتب التنسيق ، و تلك المجاميع العالية التي لا تتيح الفرصة لأصحابها في الدخول إلى الكلية التي يتمنها أهله .

نشتكي من وسائل الإعلام جميعها .. من الإعادة المملة لجميع الأفلام المقررة علينا و التمثيليات ، من الأخبار التي تحدث و يمر عليها بعض الوقت حتى تصلنا قبل غيرها من قنوات غريبة علينا ، و بأصوات مصرية مائة في المائة .

نشتكي من ارتفاع الأسعار المستمر في كل شيء ، وخصوصا في الأغذية ، و في الوقت نفسه ، نشتكي من ثبات الدخل اليومي أو الشهري للعامل أو الموظف .

نشتكي من تلك الألفاظ البذيئة التي يصدرها الكبار و الصغار في كل مناسبة ، و بلا مناسبة ، بعضها يتصل بسب الدين ، و بعضها يتصل بسب الوالدين بأبشع الألفاظ .

نشتكي من كل هذا و أكثر ، و تضيع الشكوى ، و كأن لسنا حالنا يقول : " الشكوى لغير الله مذلة " .

و سواء أ كنت تؤمن بهذه المقولة ، أو ترفضها ، فليس لنا في الأمر حيلة ، و لكن البعض سيقف يقول : إن بعض هذه المشاكل منا ، و البعض الآخر من الحكومة ..

أما المشاكل التي تخص الحكومة فكثيرة منها انقطاع الكهرباء ، و الماء ، و تنظيم السير ، ومحاربة الغلاء بالطرق الشرعية . فتلك مشكلة من مشاكلها التي يجب أن تواجهها دون التفات حولها .

أما ما يخصنا من تلك المشاكل ، فأظن أن الوعي لدى الكثير منا لم يرتق إلى مواجهة أنفسنا ..

انظر هذه السيدة التي تحمل كيس قمامة و ترميه في الشارع بكل جرأة ، و لسان حالها يقول : لا توجد أماكن مخصصة للقمامة .. و إلى أن توجد من يهتم بقمامتنا سنظل نرمي في الشارع .. منطق غريب ، ولكنه مؤدب ، فما بالك إذا دخلت العشوائيات فوجدت أطنان القمامة تعلو و تعلو دون رقيب ، فإذا حاولت أن تنبه نالتك من الألفاظ البذيئة من يمرض أذنيك .

و مادمنا عاجزين عن إيجاد الحل ، في وجود الخبراء في شتى المجالات ، فإن الشكوى لغير الله مذلة .

لا شك أن هناك أشياء خاطئة ليس في الحكومة وحدها ، و لكنا فينا أيضا بعض العيوب .. و لا يغير الله بما بقوم حتى يغيروا بما بأنفسهم .

خطة

بعض دول العالم تضع خطة لتنظيم شئونها ، سواء أكانت هذه الخطة قصيرة الأجل أو طويلة الأجل ، إلا بعض دول العالم الرابع ، التي تسير بالبركة .

و دول العالم الرابع – رغم وجودها على الخريطة الجغرافية – يحكمها زعيم – رغم ثقافته – يسير على البركة ، و غالبا ما تكون هذه البركة لصالحه ، و صالح أتباعه .. و كأن المبدأ العام الذي يسيطر على طريقة حكمهم هو القول المأثور: ألا تنظر إلى خطوتك .. فالنظر إلى أسفل يفوت الفرصة للموجود أمامك .. و النظر إلى الأعلى قد يجعلك تسقط في الحفر التي ملئت بها الشوارع نتيجة للمشروعات الجبارة من كهرباء وماء وصرف صحي و غاز ، مع عدم الربط لإصلاح ما أفسدته هذه المشروعات ، و النظر إلى الأمام مشكلة ، و خصوصا إذا تصادف و كانت أمامك سيدة جميلة أو حتى قبيحة ، تظن إنك تعاكسها ، فتصرخ طالبة النجدة ، وكل من له أو ليس له ،يهب لنجدتها دون فهم ، أو دون وعي .. لأننا نحن العرب عندنا مبدأ عظيم ، انصر أخاك ظالما أو مظلوما .

ورغم وجود دول العالم الرابع على الخريطة السياسية و الاقتصادية – وكل الخرائط الموجودة في الدنيا – ورغم الخيرات الوفيرة التي تكمن في باطن الأرض من بترول أو معادن ثمينة أو غير ثمينة .. الخ .. أو على سطح الأرض من أرض زراعية خصبة ، نستغلها في المباني ، أو في بناء المصانع .

إلا أن شعوب دول العالم الرابع تحترم الخطوط التي رسمت لها : خط الفقر و خط الجوع و خط الحرمان إلى آخر الخطوط الموجودة في الدنيا .

ورغم أن أبناء هذه الدول – ومن بينها مصر بالطبع – فيها خبراء في شتى المجالات ، خبراء لهم موهبة عظيمة ، إلا أنهم قد غطوا في النوم (غصب عنهم) .. لا تستفيد منهم دولهم في رسم خطة واضحة لمستقبل بلادهم ، لوضع خطة قصيرة أو طويلة لمحو الخطوط التي وضعت للشعب ، و يجب ألا يتجاوزها مهما يكن من أمر .

و مشكلة الخبراء مشكلة مزمنة ، فصوتهم الضعيف من ناحية ، و رغبتهم في عدم الظهور أمام شاشات التلفزة المحلية، أو إلقاء تصريحات ، تجعلهم بعيدين عن الأضواء ، هم بذلك قد استسلموا لقدرهم المرسوم لهم بدقة وعناية .

هناك سؤال يطرح نفسه بقوة ، و لا ينبغي أن نغفله .. هل هناك خطة واضحة نسير على هديها في تنظيم دولتنا ..

تسمع و الجميع يسمع أن هناك خطة خماسية قصيرة المدى ، و خطة طويلة الأمد ، و لكن ما مضمون هذه الخطة ، هل هي خطط سرية ينبغي ألا يعلم بها الناس ، حتى لا يحسدنا الآخرون عليها ، أو لكي لا يسرقوها منا ، و ينفذونها .

و الخطة التي نبحث عنها .. يجب أن تتضمن جميع الجوانب الاقتصادية و الاجتماعية ، و حتى السياسية .

الإسكان ، و تنظيم المدن تنظيما جيدا بلا عشوائيات ، و المرافق بكافة أشكالها

احتياجات سوق العمل في بلادنا في القريب العاجل ، أو البعيد الأمد .

التعليم والثقافة ،الأسعار التي تقفز يوميا في سباق محموم دون مناسبة للأجور .

خطة ، بل خطط يقوم بها الخبراء عن طريق أوراق عمل يتم مناقشتها بدقة و عناية ليكون الطريق إلى المستقبل واضح أمامنا .

خطة ، بل خطط تنظر إلى اليوم و الغد و المستقبل بكل ما يخبئه من مفاجآت .. دون عشوائية .

خطة أو خطط يبدأ تنفيذها بعد موافقة الجميع عليها ، حتى لا تكون هذه الخطة عشوائية تحتاج بعد ذلك إلى علاج .

هل نحلم بذلك اليوم الذي نجد فيه كل شيء يسير بنظام ، و لا نسمع الجملة المشهورة " كله تمام يا أفندم " .

الفهرست

1 – خورشيد باشا

2 – قراقوش

3 – الحضارة المصرية الحديثة

4 – توفيق الحكيم و شجرة الحكم
5 – الانتخابات و أنا
6 – المتنبي في مصر
7 – الأفغاني في مصر
8 – متى يعود عمر ؟
9 – مناحيم بيجن و الأهرامات
10 – الشخصية المصرية
11 – إنه عالم ديمقراطي
12 – نحن و التاريخ
13 – فوضى يا دنيا فوضى
14 – اللون الأحمر
15 – الحكم
16 – ابن الوز عوام
17 – السياحة في مصر
18 – الجهل يا
19 – اغتصاب
20 – حرية الرأي
21 – الحب .
22 – نهر النيل
23 – الشحاتون في المحروسة ؟
24 - شكوى
25 – خطة